الفصل الثالث

المترجمـــون

١ — السوريون .

٢ — خريجو المدارس والبعثات .

٣ — خريجو الألسن .

٤ — الموظفون .

الفصل الثالث

المترجمـــــون

تقـــدمة عامة :

سبق أن ذكرنا أن سنة ١٢٢٦ (١٨١١) ، وهى السنة التى تمت فيها مذبحة المماليك ، تعتبر بحق الحد الفاصل بين عهدين : العهد التمهيدى من عصر محمد على — وفيه بذل الجهد للقضاء على كل العقبات التى تعترض سبيله — وبين عهد الاصلاح ، وذكرنا أيضاً أن محمد على كان يرى أن وسيلته للاصلاح هى النقل عن الغرب ، وأن « كل ما هو مفيد من النظم الغربية قد كتبه أصحابها . فإذا ترجم إليه استطاع أن يسير طبقاً له [1] » .

وهنا اعترضته مشكلة خطيرة : أين الكتب التى تترجم ؟ وأى هذه الكتب أحق بالترجمة ؟ وأين فى مصر العارفون باللغات الأوروبية والشرقية ليقوموا بترجمة هذه الكتب ؟ وأخيراً ، أين أداة طبع هذه الكتب ونشرها ؟

لقد كانت مصر حينذاك خلوا من هذه الأدوات ، إذ لم يكن بها كتاب واحد أوربى مذ أخذت الحملة الفرنسية معها كتبها وهى تجلو عن مصر ، ولم تكن فى مصر مدرسة واحـــدة تعنى بتدريس أية لغة أوروبية ، ولم يكن بين المصريين من له معرفة بلغة من هذه اللغات الأجنبية ، وكانت المطبعة أخيراً — أداة الطبع والنشر — قد رحلت مع الفرنسيين عند خروجهم .

غير أن هذا العطل من العلم الأوروبى الحديث وأدواته ، ومقوماته ، لم يدفع اليأس إلى نفس محمد على ، بل على العكس دفعه إلى التفكير والتقدير ، والاقدام والتنفيذ ولكن من يبغى الثمرة لابد أن يمهد الأرض ويفلحها ويرويها ، ولا بد أن يبذر الحب ، ويرعاه ، وينميه ، وهكذا فعل محمد على فقـد مكث نحو العشر سنوات يمهد الأرض التمهيد الأول ، ثم لبث نحو عشر سنوات أخرى يبذر الحب ، ويرعاه ، وينميه .

فى الفترة التالية لسنة ١٢٢٦ (١٨١١) أرسل بعوثه الأولى إلى إيطاليا (١٢٢٨ — ١٢٣١) = (١٨١٣ — ١٨١٦) لدراسة فنون وعلوم مختلفة أهمها الطباعة ، وقبيل عودة عثمان نور الدين من أوربا ،

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ (عن وثائق عابدين) .

(عاد فى سنة ١٢٣٢ = ١٨١٧) أوصاه محمد على أن يشترى مجموعة كبيرة من الكتب الأوربيه كما سبق أن ذكرنا .

وفى ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (٢٢ سبتمبر ١٨١٩) صدر أمر محمد على باشا إلى كتخدا بك ، بتعيين أحد القسيسين لإعطاء دروس فى اللغة الطليانية والهندسة لبعض التلامذة الذين كانوا بالقلعة ، وأن يخصص له محل للتدريس فى القلعة ، وكان هذا أول أمر صدر بتعلم لغة أجنبية بمدارس مصر [١] .

وفى سنة ١٢٣٧ (١٨٢١) أسست مطبعة بولاق ، وفى سنة ١٢٣٨ (١٨٢٢) كان أول كتاب طبع فى هذه المطبعة « قاموس طليانى وعربى » من وضع الأب رفاييل زاخور راهبة .

بهذه التمهيدات خطا محمد على الخطوات البطيئة ، التى استغرقت عشر سنوات (من ١٨١١ — ١٨٢١) نحو تمهيد الأرض التمهيد الأول فأرسل إلى إيطاليا من تخصص فى فن الطباعة وهو نيقولا مسابكى ، وأحضر بعض الكتب ، وأنشأ المطبعة وساعد على وضع القاموس الأول ليعين الترجمة عن اللغة الإيطالية ، وهى أكثر اللغات الأوروبية انتشاراً وذيوعاً واستعمالا فى مصر وقتذاك ، وبقى التمهيد الثانى ، وهو إيجاد المترجمين ولم يكن فى المصريين من يصلح للقيام بهذا العمل غير عثمان نور الدين أحد أعضاء بعثته الأولى ، فعين فى سنة ١٢٣٧ (١٨٢١) أميناً للمكتبة الموجودة فى قصر اسماعيل باشا ببولاق . « وألحق به بعض المترجمين (كذا) ليترجموا « كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع » ، وبعض التلاميذ ليدرسوا الهندسة واللغات العربية والتركية والإيطالية » [٢] .

غير أن عثمان نور الدين ما كان يستطيع أن يقوم بالعبء وحده ، كذلك لم تكن المدارس الجديدة قد أنشئت لتخرج من يستطيع الترجمة ، ومع هذا كان الجيش الجديد قد بدىء فى تكوينه منذ سنة ١٢٣٠ (١٨١٥) ، وكانت الادارات والمصانع والمنشآت الجديدة فى سبيلها إلى التكوين ، ومحمد على يرى أن هناك كتباً أوروبية تنير له سبيل الانشاء والتكوين ، وأنه لا بد من ترجمتها ، فلا مانع لديه اذن أن يستعين بمن يستطيع الترجمة من السوريين المقيمين فى مصر ، وستقوم هذه الطائفه بواجبها خير قيام حتى تنشأ المدارس وتخرج الدفعات الأولى ، وحتى ترسل البعثات ، ويعود أعضاؤها ، فيكونّ من خريجى المدارس ، وأعضاء البعثات الرعيل الثانى من المترجمين .

---

(١) تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٢) أنظر Cattaui, Op. Cit., t.I,p, 388. Pezzoni à Ribeaupierre, le 22 Octobre, 1830.

وعزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٣٠ (عن وثائق عابدين ، دفتر ١١ (معية) رقم ٢٥٣ ، فى ٨ ربيع الثانى ، ١٢٣٨) ، ولاحظ أن مزت يذكر أن القصر كان قصر اسماعيل بن محمد على لا ابراهيم ؛ هذا وتعتبر هذه المحاولة الثانية لتعليم المصريين اللغات الأجنبية .

وقد كان الرعيل الأول من السوريين قليل العدد ، محدود المعرفة والكفاية ، وكان الرعيل الثانى من خريجى المدارس وأعضاء البعثات يقوم بالترجمة كعمل إضافى إلى جانب العمل الأساسى كالتدريس ، أو الحكم ، أو العلاج الطبي ، أو الاشراف على المنشآت ، ولهذا كان لابد من إيجاد طائفة ثالثة متخصصة فى الترجمة ، فأنشئت مدرسة الألسن ، وكون خريجوها الرعيل الثالث من المترجمين .

وقد كانت هذه الرعال الثلاث تقوم بالترجمة عن اللغات الأوربية وخاصة الفرنسية والإيطالية إلى اللغة العربية أو التركية ، غير أن محمد على كان يريد أحياناً أن يطلع على بعض الكتب الخاصة ، وكثيراً ما كانت الكتب تترجم بإشارته وإجابة لرغبته . ولغة محمد على الأصلية هى التركية ، ومعظم رجال جيشه وحكومته الأولى كانوا يجيدون التركية دون العربية ، لهذا ظهر فى تاريخ الترجمة فى عصر محمد على رعيل رابع من موظفيه عهد إليهم بترجمة كثير من الكتب عن العربية ، والقليل منهم ممن كانوا على علم بإحدى اللغات الأوربية كانو يترجمون عنها إلى التركية .

١ — المترجمون السوريون

١ — الأب أنطون رفايل ، مركزه فى مصر بعد خروج الحملة ، ارساله خطابين إلى « نابليون » ،زيارة «سبستيانى» لمصر ، سفر رفايل إلى فرنسا ، مقابلته « لتاليران » و « نابليون » ، تعيينه مدرسا بمدرسة اللغات الشرقية ، مؤلفاته هناك ، هزيمة نابليون فى ١٨١٥ ، عودة رفايل إلى مصر فى ١٨١٦ ، أسباب العودة ، رفايل مدرس بمدرسة بولاق ، وضعه لقاموس إيطالى عربى ، ترجمته لكتاب صياغة الحرير ، وهو أول كتاب ترجم إلى العربية فى عصر محمد على ، رفايل يترجم كتاب الأمير ليطلع عليه محمد على رأى محمد على فى كتابى الأمير ومقدمة ابن خلدون ، كلمة عن الترجمة العربية للكتاب رفايل ينقل مترجما بمدرسة الطب ، رأى « كلوت بك » فيه ، وفاته .

ب — يوحنا عنحورى ، الكتب التى ترجمها ج — جورجى فيدال الكتب التى ترجمها د — أوغسطين سكاكينى ، الكتب التى ترجمها ، هـ — يعقوب ، الكتب التى ترجمها ، و — يوسف فرعون ، الكتب التى ترجمها .

أمام اضطهاد مراد وابراهيم نزح من مصر كثير من السوريين المسيحيين ، كذلك خرج مع الحملة الفرنسية عدد كبير منهم خوفا من اضطهاد كانوا يتوقعونه من الحكومة العثمانية بعد اســـتعادة مصر ، من الصنف الأول انطون فرعون قسيس معلم الديوان وأخوته ، ومن الصنف الثانى طائفة المترجمين فى عهد الحملة .

ولكن يبدو أن هذه الفترة التى انتهت بتغلب محمد على على صعوباته ، وبدئه عهد الاصلاح كانت فترة مناسبة جدا لعودة وهجرة كثيرين من السوريين المسيحيين ، ففى هذه الفترة كانت أوربا — وخاصة فرنسا — مبدانا لاضطرابات وقلاقل عنيفة سببتها حروب نابليون التى انتهت بعزله ونفيه فى سنة ١٨١٥ ، وعودة الحكم فى فرنسا إلى الملكية القديمة ، وإن كان مؤتمر « فينا » لم يقض تماما على عوامل الاضطرابات والثورات فى ممالك أوربا ، فستقوم ثورات أخرى فى معظم هذه الممالك فى سنتى ١٨٣٠ و١٨٤٨ . وفى هذه الفترة أيضا انتهى النزاع بين محمد على وبين جميع الهيئات التى كانت تعترض سبيله ، وبدأ فى مصر عهد أمن وهدوء وطمأنينه

عاد إذن من أوربا إلى مصر بعض من غادرها من السوريين الذين ارتحلوا مع الحملة ، وهاجر إليها من سوريا نفر آخرون ؛ وذلك فى الوقت الذى بدأفيه محمد على بعد العدة لإنشاء مطبعته ومدارسه ، وفى سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة الطب المصرية ، وكان كل أساتذتها من الفرنسيين والايطاليين ، وعانى كلوت بك كما ذكرنا صعابا كثيرة فى التغلب على صعوبة جهل كل فريق من الاساتذة والطلاب بلغة الفريق الآخر . وهنا لجأ محمد على ، ولجأ كلوت بك إلى الاستعانة بمن فى مصر من السوريين الذين يعرفون العربية واللغات الأوربية .

١ — الآب أنطون رفاييل زاخور :

كان أول هؤلاء المترجمين السوريين شخصية فذة عرفناها من قبل معرفة جيدة أثناء كلامنا على الترجمة العلمية فى عهد الحملة الفرنسية[١] ، فقد ذكرنا هناك جهود هذا العالم فى الترجمتين الرسمية والعلمية ، وعرفنا أنه كان العضو الشرقى الوحيد فى مجمع « نابليون » ، وأنه كان المترجم الأول بديوان « مينو » ، ولم يرحل الاب رفاييل مع رجال الحملة كما رحل غيره من السوريين ، بل بقى فى مصر نحو سنتين اخرين اشتغل فى أثنائهما سكرتيرا لرئيس طائفته الدينية الأب باسيليوس عطا الله[٢] .

غير أن رفاييل كان ذا نفس طموحة وآمال عريضة ، وقد ارتقى فى عهد الحملة الفرنسيه مكانا عليا فى مصر ، فكان من رجال العلم والحكم والدولة ، فتعرف إلى شخصيات فذة « كنابليون » و « ديزيه » و « كليبر » و « ومينو » ... الخ ممن اشتركوا فى صنع تاريخ مصر فى مفتتح القرن التاسع عشر ، وقد كان فى تلك الفترة دائم العمل دائب النشاط والانتاج ، فهل يقبع فى مركزه الدينى الجديد المحدود الآفاق ؟ كلا لم ترض نفس رفاييل بهذا الركود بعد الحركة ، ولم يكن فى ظروف الحكومة الجديدة بعد أن عادت مصر لحكم العثمانيين مجال لاظهار نشاطه السياسى أو العلمى ، فولى رفاييل وجهه شطر فرنسا من جديد ، وأرسل فى مدى هاتين السنتين خطابين[٣] إلى صديقه القديم « نابليون بونابرت » .

وفى الخطاب الأول — وتاريخه ١٤ مارس ١٨٠٢ — تحدث رفاييل إلى « نابليون » بانه قد اعتزم أن يكرس حياته لخدمة الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول ، وبعد إرسال هذا الخطاب بقليل وفد على مصر « المسيو سبستيانى » رسولا دبلوماتيا من حكومة فرنسا لدراسة الحالة الجديدة فى هذه البلاد وقد اتصل اثناء مقامه بالقاهرة بكثير من مشايخ المصريين ، ورجالاتها ، وخاصة من كان له صلة بالحملة ، وقد قدم « سبستيانى » لبعض هؤلاء المشايخ صورة نابليون[٤] مهداة منه إلى كل منهم ، وكان رفاييل ممن

(١) أنظر كتابنا (تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية) ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠

(٢) أنظر عن هذا الأب : قرألى ، (السوريون فى مصر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٠ و ٢٦) .

(٣) Manuscrit inédit de Don Raphael

(٤) عن توزيع صورة « بونابرت » على المشايخ المصريين انظر : "Le Rapport de Sébastiani", dans, G. Douin, l'Egypte de 1802 à 1804; Correspondance des Consuls de France en Egypte, p. 15

هذا وقد ذكر الجبرتى خبر هذه السفارة فى ج ٣ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، ثم فى حوادث جمادى الثانية ١٢١٧ (٢٩ سبتمبر — ٢٧ أكتوبر ١٨٠٢) : « وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرانسا (كذا) وبها ألجى ، وقنصل وصحبتهما عدة فرنسيس ، فعمل لهم الانكليز شنكا ، ومدافع بالأسكندرية ، فلما كان ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه وصل ذلك الالجى ، وصحبته خلق من أكابر الفرنجيس إلى ساحل بولاق ، فأرسل الباشا للاقاتهم خازندار ، وصحبته عدة عساكر خيالة ، وبأيديهم السيوف المسلولة ، فقابلوهم ، وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزة والأزبكية ، وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقة ، وحضروا فى صحبتها إلى عند الباشا ، وقابلوه وقدم لهم خيلا معدة ، وأهدى لهم هدايا ، وصاروا يركبون فى هيئة وأبهة معتبرة ، وكان فيهم جبير ترجمان بونابرته ؛ ثم ذكر خبر سفر هذا الوفد فى حوادث شهر رجب من نفس السنة فقال : وفى خامسه (٨ نوفمبر ١٨٠٢ يوم الثلاثاء سافر الالجى الفرنساوى وأصحابه فنزلوا إلى بولاق ، وأمامهم مماليك الباشا بزيتهم ، وهم لابسون الزروخ ، والخود ، وبأيديهم السيوف المسلولة ، وخلفهم العبيد المختصة بالباشا ، وعلى رؤوسهم طراطير حمر وبأيديهم البنادق على كواهلهم ، فلم يزالوا صحبتهم حتى نزلوا ببيت راشتوا بولاق ثم رجعوا . ثم نزلوا المراكب إلى دمياط . وضربوا لهم مدافع عند تعويتهم السفن » .

خطى بهذا الشرف ، وقد فرح بهذا الاهداء كل الفرح إذ اعتبره فرصة طيبة لتجديد صلته بعاهل فرنسا الجديد ، ففى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢ أرسل إلى نابليون خطابا ثانيا ، شكره فيه على هديته ، وجدد تقديم خضوعه للقنصل الأول الذى لقبه فى خطابه بملاك السلام : Angelo di Pace. (اشارة منه لصلح «اميان» الأخير)، وضمن رفاييل كل ذلك قصيدة عربية أرفقها بترجمة لها ايطالية ، يقول الأستاذ بشاتلى : «وربما كان الدافع لارسال خطابه الثانى رد وصله من « بونابرت » على خطابه الأول صحبة « سبستيانى » ، فقد تقابل رفاييل مع « سبستيانى » ، ومن المحتمل انه دارت بين الرجلين أحاديث تتصل بنظم الحكم السياسية لأن رفاييل يخبرنا أنه عند وصوله إلى فرنسا سنة ١٨٠٣ أرسل خطابا « لتاليران » وزير الخارجية فى باريس يخبره فيه أنه يحمل خطابات هامة للحكومة الفرنسية . (١)

ووجد رفاييل أخيراً أن سياسة الخطابات سياسة غير مجدية ، فقرر أن يرتحل إلى فرنسا ، وسافر فى سنة ١٨٠٣ ، ووصل إلى مارسيليا ومنها إلى « جرينوبل » ، حيث قابله بالترحاب صديقه القديم « فوريه » ، ومن تلك المدينة أرسل رفاييل إلى « تاليران » فى « باريس » خطاباً باللغة الإيطالية يذكر له فيه أنه يحمل إليه خطابات هامة خاصة بالحكومة الفرنسية ويطلب فيه الإذن بالمقابلة ، وهنا قد نتساءل ، ترى ماذا كانت تحمل هذه الخطابات ؟ وممن كانت مرسلة ؟ الواقع أن رفاييل لم يوضح فى مخطوطته هذه المسألة رغم أهميتها ، حقيقة إن الحالة فى مصر بعد خروج الفرنسيين كانت حالة بالغة فى السوء ، وقد ارتكبت الحكومة العثمانية والجنود العثمانيون أخطاء كثيرة مما جعل الكثير من طبقات الشعب المصرى تحن إلى عهد الفرنسيين(٢) ، وتصرح بهذا الحنين ، ولكن هل فكر أحد من المصريين فى الاستفادة من المركز الدولى فى أوربا وقتذاك ، وهل فكر أحد منهم — كما سبق أن فكر الجنرال يعقوب — فى عرض اقتراح جديد لإنقاذ مصر من حالتها السيئة ؟ وما نوع هذا الاقتراح ؟ ومن صاحبه ، أو أصحابه ؟ كل هذه أسئلة يثيرها فى الذهن أمر هذه الخطابات التى كان يحملها رفاييل من مصر إلى وزير خارجية فرنسا .

وسافر رفاييل إلى باريس ، وما كاد يستقر فى العاصمة حتى كتب خطاباً آخر باللغة الإيطالية أيضاً إلى القنصل الأول يطلب مقابلته ، يقول الأستاذ بشاتلى : « ولسنا نعلم شيئاً عما دار بين رفاييل والقنصل الأول ، ولكن مما لاشك فيه أن ما كلف به رفاييل كان ذا أهمية بالغة ، فقد بادرت الحكومة الفرنسية ، وكافأته على ما قام به بأن عينه القنصل الأول أستاذاً مساعداً بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وصدر

---

(١) Bachatly, Un Membre Orient ... etc. pp. 253-254.

(٢) أنظر الجبرتى . ج ٣ . حوادث سنتى ١٢١٦ . ١٢١٧ (١٨٠١ و ١٨٠٢) . فقد قال فى ص ٢١٠ مثلا : وتسلطوا (أى الجند العثمانيون) على الناس بالسب والشتم ، ويجعلونهم كفرة وفرنصيص وغير ذلك . وتمنى أكثر الناس وخصوصا الفلاحين أحكام الفرنساوية .

أمر هذا التعيين فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٣ (أول فانديمير سنة ١٢)، وذلك بعد ستة عشر يوماً من طلب المقابلة »[١] .

وقد نص أمر التعيين على أن يعهد إلى رفاييل بإلقاء دروس فى اللغة العامية ، وبترجمة المخطوطات العربية الموجودة فى المكتبة ، والخاصة بالأدب والتاريخ المصرى ، وقد جاء فى كتاب :

"Notice Historique sur l'Ecole Spéciale des langues Orientales Vivantes."

أن هذه الترجمات « كانت تتجه لإعداد مواد تفيد منها اللجنة التى كانت تعمل لإخراج المؤلف الكبير — وصف مصر »[٢] .

وقد نشط رفاييل فى المدة التى قضاها فى فرنسا (١٨٠٣ — ١٨١٦) إلى التأليف مرة أخرى، فوضع كتاباً « عن البدو أو عرب الصحراء »[٣] ، ثم ألف كتاب مطالعة لتلاميذ مدرسة اللغات الشرقية عنوانه « مرج الأزهار وبستان الحوادث والأخبار »[٤] ، ثم نظم قصة السندباد البحرى ، وترجم إلى العربية بعض قصص « لافونتين »[٥] ، ثم بدأ أخيرا فى تأليف كتابه الذى أهداه إلى « بونابرت » عن تاريخ مصر وجبل الدروز وعنوانه « مجموع أصح العبارات ، وأدق الرموز ، فى أرض مصر وجبل الدروز »[٦] .

وفى سنة ١٨١٥ هزم نابليون فى موقعة « واترلو » ونفى إلى جزيرة « سانت هيلانة » ، فقفد رفاييل صديقه وراعيـــه وحاميه ، وبدأ يناله ما نال معظم مؤيدى الإمبراطور السابق وأصدقائه من نقمة واضطهاد ، فقد قررت الحكومة الجديدة تخفيض مرتبه تنفيذا لسياسة الاقتصاد العامة التى رسمها حينذاك الوزير قوبلان : Vaublanc ولم يرض رفاييل عن هذا الوضع الجديد فقدم استقالته فى أبريل سنة ١٨١٦ وقرر العودة إلى مصر .

هذا هو — فى رأى الأستاذ بشاتلى — الدافع الوحيد لرحيل رفاييل عن فرنسا ، وعودته إلى مصر ، ولكننى قد أرى أن هناك سببين آخرين لهما من القوة ما للسبب السابق ،

أولها : أن هذه الفترة من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨٢١ كانت فترة التمهيد للاصلاحات التى بدأها محمد على ،

---

(١) Bachatly, Op. Cit. pp. 254—255.

(٢) Notice Historique sur l'Ecole spéciale des langues Orientales vivantes, Paris, 1993, pp. 20-21.

(٣) نشرت ترجمة هذا الكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان : Les Bédouins ou Arabes du Désert, ouvrage publié par Mayeux, d'après les notes de Don Raphael, Paris, 1819, 3 volumes.

(٤) لا زال هذا الكتاب مخطوطا .

(٥) ذكر بشاتلى . المرجع السابق . ص ٢٥٦ هامش ٥ . أن هذا الكتاب لا زال مخطوطا وهو فى محفوظ فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية .

(٦) هذا الكتاب لا زال مخطوطا غير كامل . وقد بدأه رفاييل كما يقول فى مقدمة الكتاب « بثانى عام خروجى من الوطن » وقد أخطأ الأستاذ بشاتلى . المرجع السابق ص٢٥٦ . هامش ٦ ترجمة هذه الجملة . فظن أنه بدأ تأليفه بعد خروجه من مصر بسنتين "deux ans aprés son depart del'Egypte.

ولا شك أن أخبار هذه الاصلاحات كانت قد وصلت إلى فرنسا فى ذلك الحين ، فلعلها دفعت رفاييل — وهو فى ضيقه الجديد — إلى التفكير فى العودة إلى مرتع صباه ، إلى البلد التى بدأ فيها مجده العلمى والسياسى فى عهد الحملة الفرنسية .

وثانيهما : أن محمد على كان قد أرسل عثمان نور الدين — وهو أول مبعوث إلى أوربا فى سنة ١٨٠٩ لتلقى العلوم الحربية والسياسية فى إيطاليا — وذلك بوساطة يوسف بكتى[1] قنصل السويد فى القاهرة — وقد مكث عثمان نور الدين أربع سنوات فى إيطاليا ، ثم سافر إلى فرنسا ليكمل بها تعليمه فلبث بها سنتين أخريين ، فهل يبعد أن يكون رفاييل قد اتصل — وهو فى باريس — بعثمان نور الدين ، وعرف منه الشىء الكثير عن سياسة محمد على الاصلاحية ، وأن هذه السياسة ترمى إلى النقل عن الغرب ، وأن سلاحه الأول هو الترجمة ؟

عاد رفاييل إلى مصر فى سنة ١٨١٦ ، واتصل بمحمد على ، وإن كنا نجهل من من الرجلين سعى للاتصال بصاحبه ، وكان محمد على حينذاك يمهد السبيل لنقل علوم الغرب ، وكان قد أرسل بعثاته إلى إيطاليا للتخصص فى فن الطباعة ، وإذ كانت اللغة الايطالية هى لغة المراسلات الدبلوماتية وأكثر اللغات الأوربية انتشارا فى مصر ، فقد كلف محمد على رفاييل أن يضع قاموساً للغتين العربية والايطالية .

وفى سنة ١٨٢٠ مر بمصر (بروكى Brocchi) الرحالة الإيطالى ، وفى ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ زار مدرسة بولاق السابق ذكرها ، وروى أنه رأى بين هيئة المدرسين ثلاثة من رجال الدين المسيحيين[2] هم (دون كارلو بيلوتى Don Carlo Bilotti من (كالابريا) والأب (سكاليوتى L'abbé Scagliotti من بيدمنت) ودون رفاييل ويقوم بتدريس اللغة العربية .

وبعدستة أيام — أى فى ١١ ديسمبر — زار (بروكى) مطبعة بولاق ، وأشار إلى الكتب التى كانت تحت الطبع ، وأولها (قاموس طلياني وعربي Dizionnaire Italiano) ، وقد تم طبعه فى نفس السنة ١٢٣٨ (١٨٢٢) ، وقد ذكر بيانكى فى قائمته ، ووافقه (برون) أن هذا القاموس هو أول كتاب طبع فى مطبعة بولاق ، غير أن (بروكى) قال إن أول كتاب طبع بها كان كتابا تركيا وضع لتعليم تلاميذ المدارس الحربية القائمة فى الصعيد حينذاك ، ثم طبع بعد هذا الكتاب — وقبل طبع القاموس — كتابان آخران ، أحدهما فى الأجرومية العربية ، والثانى كتاب فى الفنون العسكرية ترجم عن الفرنسية إلى العربية[3] .

وقد درس المستر (هيورات دن) قائمة بيانكى دراسة طيبة فى مقاله عن الترجمة والطباعة فى عصر محمد

---

(1) Cattaui, Op. Cit. t.I, p, 387.

(2) Brocchi. Giornale delle Osservazioni fatte ne'viaggi in Egitto, etc. t I' p, 173., Maria Najimo, Intorno Due Traduzioni Arabi Del "Principe" Del Machiavelli. Oriente Moderno, 1931, p. 606.

على [١] ، غير أنه نسب هذه القائمة خطأ إلى دكتور برون ، وقد اعتذر فى مقاله عن (برون) ، اى عن (بيانكى) فقال إنه من المحتمل أن المطبعة لم تكن فى أول أمرها قد نظمت النظام الكافى ، وإن الكتب الأولى التى طبعت بها قد طبعت بسرعة ، فلما بدأ (برون) و (بيانكى) يعدان قائمتيهما لم تكن هناك نسخ باقية من هذه الكتب الأولى ، ولهذا لم يشيرا اليها .

وفى السنة التالية ١٢٣٨ (١٨٢٣) طبع الكتاب الثانى لرفاييل وهو ترجمة عربية لرسالة فرنسية من تأليف (ماكير) عن صباغة الحرير (واسم هذه الرسالة باللغة الفرنسية l'art de la tainture en soie, par M. Macquer, Paris 1808. وعنوانها باللغة العربيه (كتاب فى صناعة صباغة الحرير) ، ويقع هذا الكتاب فى ١١٨ صفحة من القطع المتوسط ، وفى الصفحة الأولى منه مقدمة للمترجم لم يذكر فيها السبب الذى دفعه لترجمة هذا الكتاب ، وإن كان من المرجح أنه ترجمه تنفيذا لأمر محمد على ليفيد منه القائمون على إنشاء الصناعة الجديدة التى أوجدها محمد على فى مصر — وخاصة صناعة النسيج — وتلى مقدمة المترجم مقدمة علمية للمؤلف من صفحة ٢ إلى منتصف صفحة ١٠ ، ثم فهرس للكتاب من منتصف صفحة ١٠ إلى نهاية صفحة ١٢ ؛ ثم شرح للألوان والألفاظ الاصطلاحية الواردة فى الكتاب فى ثمانى صفحات ، والمتن يشغل الصفحات الباقية [٢].

ويعتبر هذا الكتاب — إذا استثنينا الكتاب الحربى المترجم عن الفرنسية الذى ذكره (بروكى) — أول كتاب ترجم فى عصر محمد على ؛ فهو أول الغيث ، وبهذا يكون رفاييل صاحب السبق فى هذا الميدان ، فهو صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية إلى العربية وطبع فى مطبع الحملة وفى عهدها ؛ وهو رسالة (دى جينيت) عن مرض الجدرى ، وهو أيضا صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية إلى العربية ؛ وطبع فى مطبعة بولاق فى عهد محمد على .

وضع رفاييل هذا القاموس ، وترجم هذا الكتاب تنفيذا لأمر محمد على ؛ مما يرجح أن الصلة كانت قوية بين الرجلين ؛ ولم يكن محمد على سليل بيت مالك ؛ بل إنه سعى حتى فاز بهذا العرش فوزا ؛ ولقد كان له من فطرته السليمة ، وعبقريته الفذة ، ما دفعه إلى البحث والدرس ، وخاصة كل ما يتعلق بنظم الحكم

---

(١) Donne, Op. Cit. p. 333.

(٢) جاء فى الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب . ص ١١٨ هذه الأبيات ، وهى من إنشاء رفاييل نقلها كما هى :

لقد تم الكتاب بحسن لطف ... وجاء الدون من (م) المولى القدير
وقانا النصر حقا على (ع) الأعادى ... وفزنا بالمنى وبالسرور
وقد شرفت ليالينا جميعا ... بخدمتنا لمولانا الوزير
وقد جاد الزمان لنا بسعد ... برفع الكتب للملك المشير
وصاقانا الزمان بطول عز ... لأن العز فى طبع الحرير
ببولاق لها شأن عظيم ... حماها الله من كيد الدهور
فلك زيادة الواو أرخ ... بطبعة تجمد الوزير

أنظر الصورة فى الصفحة المقابلة .

القاموس الايطالى العربى

من وضع الأب رفاييل

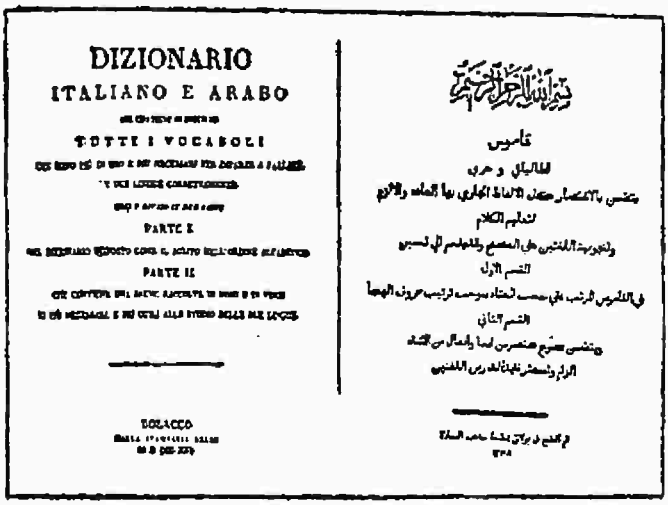

DIZIONARIO

ITALIANO E ARABO

TOTTE I VOCABOLI

PARTE I

PARTE II

ROMA

قاموس

ايطالي و عربي

يحتوي بالاختصار جملة الالفاظ الجارية بها الكلام والتقويم

لتعليم الكلام

ولتوريث الناشئين على التصنع والتعاطي في تحسين

القسم الاول

في القاموس الرتب على حسب الحاجة بترتيب حروف الهجا

القسم الثاني

يحتوي تصريح عشرين ابنا وافعال من الثلاثة

الرام وتسعة ابنا للدرس الناشئين

رواحد من الكتب الثلاثة الأولى التى طبعت فى مطبعة بولاق فى عصر محمد على

الصفحة الأخيرة من كتاب

«فى صناعة صباغة الحرير»

ترجمة الأب رفاييل

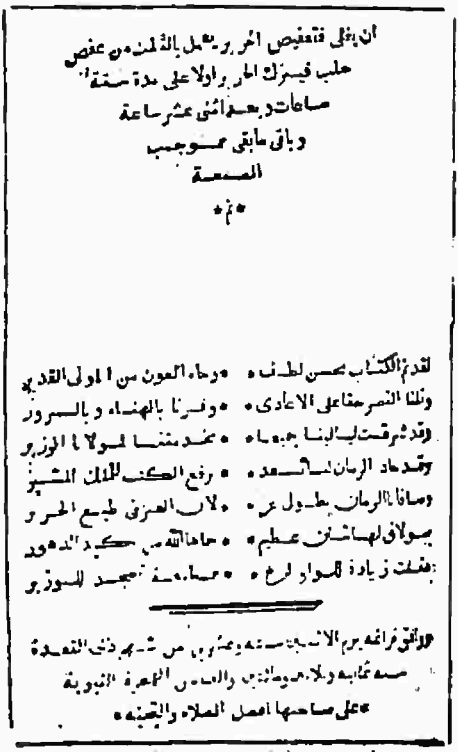

ان يغلى فتعفيص الحرير يعمل بالثمن من عفص
حلب فيسرك الحرير اولا على مدة ستة
ساعات وبعد ذلك عشر ساعة
وباقى مابقى موجب
الصنعة
ا

لقد تم الكتاب بحسن لطف * وجاء العون من المولى القدير
ولله النصر جنا على الاعادى * وفرنا بالهناء وبالسرور
وقد شرفت لبنا جبهاه * بخدمتنا لمولانا الوزير
وقد حاد الزمان لسا سعده * برفع الكتف للملك الشهير
وصافا الزمان بطول عمر * لاب العزى طبع الحرير
يصولا فى الهاشمى عظيم * حاها الله من كيد الدهور
بفضل زيادة للواد لرخ * عساه تعجد الموزير

وافق فراغه يوم الاثنين سنة وعشرين من شهر ذى القعدة
سنة ثمانية وثلاثين والف من الهجرة النبوية
على صاحبها افضل الصلاة والتحية

والإدارة ، وفن السياسة ، ولهذا كان دائم الصلة بكل من فى مصر من دبلوماسيين أوروبيين ، وبكل من يفد عليها مرتحلا أو زائرا ، وكان فى اجتماعه معهم دائم السؤال عن أحوال بلادهم السياسية والعلمية ، وعن نظم حكوماتهم ، وعن أهم الكتب وأحسنها ، وقد نصحه ناصح من هؤلاء فى تلك الفترة (حوالى سنة ١٨٢٠) — وإن كانت المراجع لا تذكر من هو — بقراءة كتاب (الأمير) (لميكافيللى) . فبادر محمد على وكلف رفاييل بترجمة هذا الكتاب فترجمه إلى اللغة العربية (حوالى ١٢٣٩ — ١٢٤٠ = ١٨٢٤ — ١٨٢٥) أشار (بروكى) — فى غموض — إلى ترجمة هذا الكتاب ، ثم أشار إلى هذه الترجمة فى وضوح وإيضاح لا بأس به (جويسبى أشربى : Giuseppe Acerbi (1773-1845) قنصل النمسا فى مصر فى عهد محمد على فى رسالة منه إلى (السنيور جيروفى) أمين المكتبة الامبراطورية فى (ميلانو) ، وقد ذكر (أشربى) فى هذه الرسالة أنه تحدث مع الباشا فى إحدى مقابلاته عن الكتب والأدب ، وقد دهش عندما أخبره محمد على أنه أمر بترجمة كتاب الأمير لميكافيللى إلى التركية ، وإنه جد مشوق لمعرفة ما يتضمنه هذا الكتاب الذى سمع عنه ثناء جما من أحد الأوروبيين .

وذكر (أشربى) بعد ذلك أن محمد على تحدث اليه عن هذا الكتاب فى مقابلة أخرى — وكان ذلك فى سنة ١٨٢٨ أى بعد ترجمة الكتاب بنحو أربع سنوات — فقال له ما ملخصه (إنكم تثيرون فى إيطاليا ضجة كبيرة حول كاتبكم المعروف (ماكيافيللى) ، وقد أمرت بترجمة كتابه إلى التركية لكى أعرف ما فيه ، ولكننى أعترف بأننى قد وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع ، ومن الشهرة التى له .

وإنى أعلن إليك أيضاً أن هناك مؤلفاً آخر عربياً أثار دهشتى ، ونال إعجابى ، بعد أن أمرت بترجمته للغة التركية — هو مقدمة ابن خلدون — ، إن هذ الكاتب أكثر حرية فى تفكيره من ماكيافيللى ، بل إننى أعتقد أن كتابه أكثر وأشـــد نفعاً ، وإذا كان كتاب ماكيافيللى ممنوعا تداوله فى بعض البلاد الأوروبية ، أفما كان من الأجدر أن يكون المنع أتم وأعم بالنسبة لمقدمة ابن خلدون [1] .

---

(1) Lettera del signor Const. Acerbi, concolegenerale di S. M. I. R. A. in Egitto al Signor Girovi Bibliotecario della Bibl. Imp. di Brera in Milano. Biblioteca Italiane, tome LXI, Milano 1831. pp. 259-293, Maria Nallino, Op. Cit. pp. 604-605.

وهناك رواية أخرى رواها الانجليزى « سانت جون » الذى زار مصر حوالى سنة ١٨٣٠ ، وفيها يشير إلى أن السبب فى قنصل انجلترا فى مصر هو الذى أعد الترجمة التركية لكتاب الأمير ثم عرضها على محمد على ، وفى هذه الرواية أيضا رأى محمد على فى الكتاب ، وفيما يلى نص ما ذكره « سانت جون » باللغة الانجليزية :

"I regard the Pasha as a man of genius, - but the entire absence of that knowledge, theoretical and (54) practical, which nothing but a political educationcan bestow. Yet his Highness considers himself a great statesman; and from an anecdote related to me at Alexandria, it isclear that he still prefers the Oriental style of ruling. Salt formerly British Consul-General in Egypt, wishing to ingratiate himself with the Pasha, by instructing him more deeply in the arts of tyranny, procured a Turkish translation to be made of Macchiavelli's "Prince", and presented it to his Highness. After allowing the spell a sufficient time to operate, and finding in his various audiences no allusion made to the translation, he one day employed to introduce the subject, by directly demanding of the Pasha his opinion of Macchiavelli. "My

ولا يمكننا أن نمر بهذا الحديث دون أن نشير إلى دلالاته المختلفة وأولها وأهمها هذه القدرة العجيبة من شخص كمحمد على ظل أمياً حتى سن متأخرة جداً ، على تفهم كتابين من أعظم ما خلفته الثقافة الانسانية فى الغرب والشرق ، ثم المقارنة بينهما ، وتفضيل أحدهما على الآخر .

بقى أن نشير إلى ما ورد فى حديث محمد على « لاشربى » من أنه أمر أن يترجم المكتاب إلى التركية ، مع أن الترجمة التى وصلتنا ترجمة عربية ، ويمكن تفسير هذا التعارض بأن رفاييل الذى كلف بترجمة الكتاب لم يكن يعرف اللغة التركية فترجمه إلى العربية ، وإذ كان محمد على لا يتقن العربية ، ولغته الأصلية هى التركية ، فمن الممكن أن نفرض أن هذه الترجمة العربية ترجمت ثانية إلى التركية[1] — إما كتابة وإما شفاهاً — ليتمكن محمد على من فهم ما جاء بها . ويؤكد هذا الظن أمر محمد على فيما بعد بترجمة رحلة رفاعة إلى « باريس » عن العربية إلى التركية ، ليطلع عليها هو ورجال دولته ممن يجيدون التركية دون العربية .

ومخطوطة الترجمة العربية كانت موقوفة على مكتبة مسجد سيدنا الحسين ، ثم نقلت منها إلى دار الكتب المصرية حيث ما تزال محفوظة تحت رقم ٤٣٥ تاريخ ، وعنوانها « المجلد الرابع من مصنفات نيقلاوس فى التواريخ وفى علم حسن التدبير فى الأحكام[2] » ، وطول المخطوطة ٢١,٥ سم ، وعرضها ١٦ سم وهى مكتوبة بالخط النسخ الجيل ، وتتكون من ٨٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٢٠ سطراً .

والأوراق من ١ ا إلى ٢ ب تحتوى على مقدمة موجزة من قلم المترجم تبدأ بقوله « نبتدىء بعون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والحمد لله الذى على مشيئته وتدبيره تنعقد سلاسل الحوادث والأخبار ، ومن فيض أحكامه ونجد (كذا) تقديره يجرى مجرى ماوقع فى الدهور والأعصار . . ، ثم يلى ذلك مدح لمحمد على وانه أمره بترجمة هذا الكتاب الذى ألفه المعلم ماكيافيللى ليفيد منه القائمون بالوظائف الادارية ، وانه

---

opinion of him, "replied Mohammed Ali, "is, that he was a more babbler, we have in Turkish, two words worth more than his whole book" At this termination of his courtier-like adventure, Salt was so much confounded that he omitted to enquire the nature of this brief vocabulary of tyranny; but we may venture to supply the omission with,"plunder,"and "kill". After all, however, the Pasha's secret opinion of the Prince may not be so unfavourably unless we suppose that the grave irony of the republican writer unmasking the arts of despotism while pretending to furnish it with arms, may not have escaped Mohamed Ali, though it imposed upon Salt."

St. John Egypt and Mohemed Ali, vol. 2, pp. 453-454.

(١) Maria Nallino. Op.Cit. p. 605.

حيث ذكرت أن هذا الحديث دفع « لاشربى » إلى البحث عن نسخة مخطوطة من مقدمة ابن خلدون ، فعثر على نسختين ، أرسل أحدهما إلى مكتبة « بريرا » والثانية إلى مكتبة « فيينا » الامبراطورية ، وان مسابكى مدير مطبعة بولاق وعده بالشروع فى طبع هذا الكتاب ، ثم ذكرت أن هذا النص التركى لم يطبع البتة فى بولاق . وإنما طبع النص العربى فى بولاق سنة ١٢٧٤ (١٨٥٧) ونضيف نحن ان النص التركى طبع فى بولاق فى نفس السنة (١٢٧٤) وهو من ترجمة محمد افندى صاحب الشهير ببيرى زاده ويقع فى ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير . أنظر فهرس الكتب التركية لدار الكتب المصرية .

(٢) ذكر هذا الكتاب فى الجزء الخامس من فهرس دار الكتب الحديد . ص ٣٩ تحت هذا العنوان « الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير تأليف نيقلاوس ما كيافلى الايطالى »

ترجمه ترجمة دقيقة ليكون واضحا سهلا لمن يقرأه ، وأنه بذل فى ذلك عناء وعناية لأن تراكيب الكتاب قديمة وأفكاره صعبة ، فقد ألف فى سنة ١٦٠٠ م .

والكتاب غير تام الترجمة [١] ، ويتكون من ٢٣ فصلا ، وان كان رافيل قد اطلق على كل فصل من الفصول السبعة الأولى اسم « رأس » ، ثم سمى الفصول من ٨ إلى ١٢ فصولا ، ولكنه عاد فكتب على الفصول الباقية لفظ « رأس » بدلا من فصل .

وترجمة رفايل لهذا الكتاب — كترجمانه الأخرى — ضعيفة ركيكة الأسلوب ، صعبة الفهم وسنعود للتحدث عنها بإسهاب عند تقديرنا العام للترجمة فى هذا العصر ، وتقول الآنسة « ماريا نالينو » [٢] أن مشروع طبع هذا الكتاب لم ينفذ ولعل ذلك راجع إلى رأى محمد على الذى لم يقدر محتويات كتاب « ماكيافيللى » ، أو لعل ترجمة رفايل بدت أمام مصححى مطبعة بولاق من شيوخ الأزهر ركيكة الأسلوب ضعيفة العربية ، بل وغامضة غير واضحة المعنى فى مواضع كثيرة منها .

هذه هى جهود رفايل الأولى فى الترجمة منذ عاد إلى مصر وكلها تنفيذ لأمر محمد على وتوجيهاته ، فلما أنشئت مدرسة الطب فى سنة ١٢٤٣ (١٨٢٧) اختار كلوت بك نفرا من المترجمين السوريين ليقوموا بنقل الدروس ، وترجمة المحاضرات إلى الطلبة ، وكان رفايل أول من اختير لهذه المهمة .

وقد جاء فى التقرير الذى كتبه كلوت بك عن حالة المدرسة فى سنتها الأولى ، أن رفايل الدكتور فى الطب ، العالم باللغة العربية والفرنسية والايطالية ، والمعين بالمدرسة كلف بترجمة علم الفسيولوجيا ، وانه قام به بدقة ووضوح [٣] .

ثم ذكر « كلوت بك » فى تقرير السنة التالية (١٢٤٤ = ١٨٢٨) اسم رفايل بين أعضاء لجنة الامتحان ، وقال : « إن الأستاذ الدكتور رفايل قام فى كثير من المهارة بترجمة رسالة فى التشريح الباتولوجى Anatomic Pathologique وكان من الضرورى أن يقوم بهذا الواجب طبيب له قيمته كرفايل متمكن من اللغة

---

(١) آخر جملة وردت فى الكتاب هى : « فانهم لا تدون إذا توافقوا مع الأوقات والأحوال ، وتحسون إذا وقع . . . وقد ذكرت Maria Nallino, Op. Cit. p. 608 أن هذه الجملة يقابلها فى النص الايطالى ما يلى "Concludendo, adunque che, variande la fortuna e stando li uomini ne'loro modi ostinati, sono felici mentre concordan insieme e, come discordano infelici."

وهذه احدى فقرات الفصل الخامس والعشرين من الأصل واستنتجت من هذا أن الذى لم يترجم هو بقية هذا الفصل ، الفصل السادس والعشرون وهو الأخير .

(٢) Op, Cit, p. 609

(٣) Clot, Compte rendu des travaux de l'Ecole de médecine d'Abou-Zabel, pour la première année de sa fondation (1243=1827), pp. 7-8,

وعزت ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ، ولسنا نعرف من أين حصل رفايل على لقب « دكتور » ويرى الأستاذ بشائل أن هذا قد يكون لقب تشريف أضفاه عليه كلوت بك اعترافا بخدماته ورفعا لشأنه بين تلاميذه . أنظر : Bachatly ,un Membre Oriental, etc. p. 260.

العربية ليقوم بمثل هذا العمل الصعب »[١] .

ويشير التقرير الثالث (١٢٤٥=١٨٢٩) إلى أنه كان لايزال مكلفاً بترجمة علم الفسيولوجيا ، وإنه كان يقوم بهذا العمل بمنتهى الدقة والوضوح .

وفى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣١ (٦ جمادى الأولى ١٢٤٧) توفى رفاييل بعد هذه الحياة العلمية الحافلة ، وبعد أن بلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة ، وذلك فى داره التى كان يسكن بها فى القاهرة مع أحد أقاربه المدعو (يوسف الراهبة) الذى ورث عنه أمواله وكتبه وأثاث داره ، يقول الخورى قسطنطين الباشا فى ختام ترجمته للأب رفاييل : « ولم تنقض سنة على وفاة الأب رفاييل حتى لحقه نسيبه يوسف راهبه، ومات غرقا فى البحر ، وذهبت أمواله وكل تركة الأب رفاييل طعمة الأسماك . . »

انتهى الطواف برفاييل إلى أن يكون مترجما للكتب الطبية فى مدرسة أبى زعبل ، ولكنه لم يكن السورى الوحيد الذى عهد اليه بهذا العمل ، بل شاركته فيه طائفة من مواطنيه تذكر المراجع أسماءهم فى شىء من الغموض ، وهم (يوحنا عنحورى ، وجورج فيدال ، ويعقوب ، وأوغسطين سكاكينى) .

(ب) يوحنا عنحورى :

أسرة عنحورى [٢] من أقدم الأسر السورية ، وقد اشتهر منهـــا أفراد كثيرون فى سوريا ومصر كرجال دين وعلم وأدب ، وممن له ذكر منهم فى عهد محمد على يوحنا (أو حنا أو حنين) عنحورى ، ولسنا نعرف عن حياته شيئاً ، وإن كنا نرجح أنه ممن سافروا إلى إيطاليا ، وتعلموا بها ، فقد كان يجيد اللغتين العربية والإيطاليه ، ويبدو أنه كان يحتل المركز السامى بعد رفاييل فى مدرسة الطب المصرية ، بل إنى

(١) Clot, Compte rendu des travaux de l'Ecole de Médecine d'Abou-Zabel, pour la deuxiéme année de La fondation (1244—1829)., pp.6 et 11.

هذا وليس بين الكتب الطبية التى ترجمت وطبعت فى عصر محمد على كتاب بهذا العنوان منسوب إلى رفاييل ، وإن كان هناك كتاب طبى آخر ترجم وطبع فى نفس الوقت الذى أنشئت فيه مدرسة الطب . فقد تم طبعه فى آخر ربيع الثانى ١٢٤٢ (آخر نوفمبر ١٨٢٦) . وعنوانه « كتاب فى قواعد الاصول الطبية المحررة عن التجارب لمعرفة كيفية علاج الأمراض الخاصة ببدن الانسان » وهو من تأليف « الحكيم فرانشسكوفاكا : Fr. Vacca. أستاذ المدرسة الجامعة لجميع العلوم فى مدينة بيزا » ؛ أنظر نفس الكتاب ج ٢ ، ص ١ ، و ج ١ ص ١٠٨ ، وانى لأرجح متفقا مع المستر (دن : Dunne) أن يكون هذا الكتاب من ترجمة رفاييل ، وان كنت أعتمد فى ترجيحى على أسلوب الكتاب وطريقة ترجمته بينما يعتمد « دن » على أن الكتاب من تأليف « فاكا » ؛ ومدرس الفسيولوجيا فى مدرسة الطب بأبى زعبل « جيتانى Gaetani » كان تلميذاً لفاكا فلا يبعد أن يكون الرجلان قد تعاونا على اختيار هذا الكتاب وترجمته ، وهذا فى رأيى ترجيح خاطىء لأن الكتاب ترجم وطبع فى أواخر ١٨٢٦ أى قبل انشاء مدرسة الطب ، انظر Dunne, Op. Cit. p 338.

(٢) تنتسب هذه الأسرة إلى قرية « عين حور » فى سوريا ولكنها سكنت دمشق فيما بعد ، ورحل منها أفراد كثيرون إلى مصر ، وخاصة دمياط والقاهرة . أنظر عيسى اسكندر المعلوف . دوائى القطوف فى تاريخ بنى المعلوف . ص ٢٠٧ . هامش ١ . قرأ فى المرجع السابق . ج ١ ص ١١٢ و ١٣٣ . ج ٢ . ص ١٩ . والباشا . المرجع السابق . ص ٥٣ . وميخائيل بريك . تاريخ الشام ؛ ص ١١٥ ؛ وشيخو ، الآداب العربية فى القرن ١٩ ، ج ٢ ص ١٢٣ وسركيس ، المرجع السابق ، ١٣٨٨ — ١٣٩٠ .

لارجح أن يكون رفايل هو الذى مهّـد له ولزملائه من المترجمين السوريين سبيل الالتحاق بهذه المدرسة ، فلما توفى رفايل احتل عنحورى مركز المترجم الأول [١] - إن صح هذا التعبير — وقد كانت صلته بأنشط أساتذة المدرسة الفرنسيين : (كلوت بك) و (برون) و (ديفينو) — وثيقة قوية فترجم لهم كتبهم .

وقد قام عنحورى بترجمة سبعة كتب طبية ، منها واحد من تأليف (كلوت بك) وثان من تأليف (دكتور برون) ، وهى :

١ — القول الضريح فى علم التشريح : Anatomie du Corps Humain من تأليف (بايل Bayle) وبه إضافات من وضع (كلوت بك) ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٨(١٨٣٢) ، فى جزئين .

٢ — بتولوجية أى رسالة فى الطب البشرى : Traité de Pathologie تأليف بايل ، طبع فى بولاق سنة ١٢٥٠(١٨٣٤)فى جزء واحد.

٣ — رسالة فى علم الجراحة البشرية : Traité de Cnirurgie ترجمت عن الفرنسية ، وطبعت فى بولاق سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤) .

٤ — منتهى الأغراض فى علم شفاء الأمراض ، تأليف العالمين الفرنسيين :(بروسيه) و (سانسون) طبع فى بولاق سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤) فى جزئين .

٥ — مبلغ البراح فى علم الجراح ، تأليف(كلوت بك) طبع فى بولاق سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) .

٦ — الأزهار البديعة فى علم الطبيعة ، تأليف الدكتور (برون) ، طبع فى بولاق سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) فى جزئين .

٧ — علم النباتات ، ترجمه عن الفرنسية وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ (١٨٤١) .

وقد قدر (كلوت بك) لعنحورى [٢] جهده فى الترجمة ، فأثنى عليه ثناء حجا ، وقال إنه مترجم قدير ووصفه بالإخلاص فى عمله ، والإقبال على البحث عن المصطلحات العلمية العربية الصحيحة .

وكان عنحورى ضعيفا فى الفرنسية ، وإن كان يجيد اللغة الايطالية ، لهذا كانت تترجم له الكتب من الفرنسية إلى الإيطالية ، ثم يقوم هو بترجمتها إلى اللغة العربية ، فهذا كتاب (منتهى الأغراض فى علم الأمراض) ، « ترجمه من اللغة الطليانية بالاملا يوحنا عنحورى . . بعد أن نقل إليه من الفرنساوية ،

---

(١) ذكر جورجى زيدان ، تراجم مشاهير الشرق فى القرن ١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٠ أن رفاعة بك عين بعد عودته من فرنسا مترجما بمدرسة الطب ، وكان متوليا رئاسة الترجمة بها قبله يوحنا عنحورى . ووافقه على هذا المعلوف المرجم السابق ، غير أن المراجع المعاصرة لم تفرق بين المترجمين السوريين فى مدرسة الطب ، فتجعل لأحدهم مكانة الرئيس ، وكل ما نستطيع أن نقره أن عنحورى — كما سنرى — كان أكثر نشاطا وانتاجا ومعرفة بفنه من زملائه .

(2) Clot Bey,Compte rendu. . . . p. 45.

الترجمة العربية لكتاب الأمير

صفحة الغـــلاف

[أنظر ما فات هنا ص ٨١]

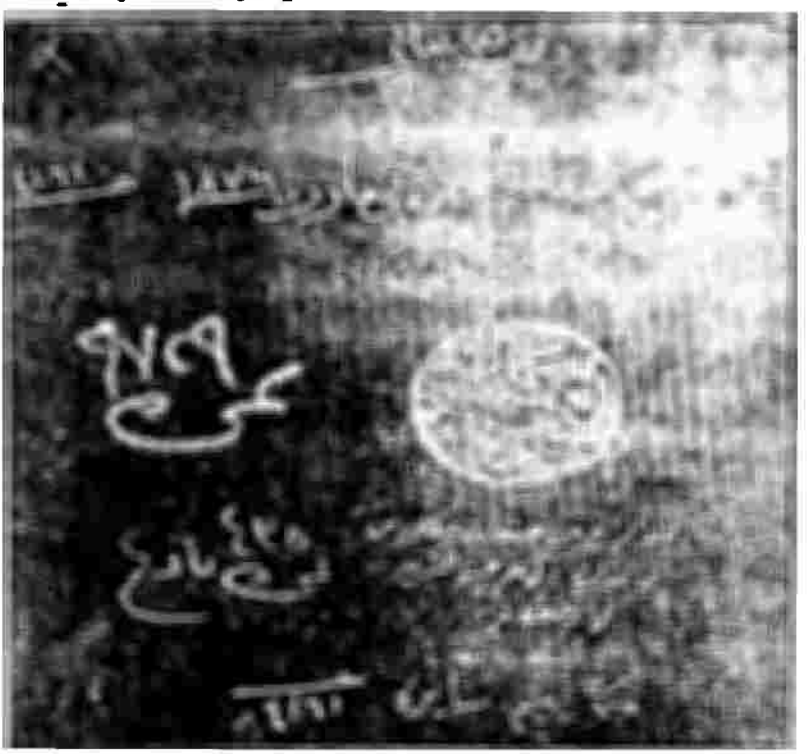

الصفحة الأولى وبها مقدمة المترجم وتصريحه أنه قام بالترجمة تنفيذا لأمر محمد على

كتاب الامير لمكيافللي

ترجمة الأب رفاييل زاخور راهبة

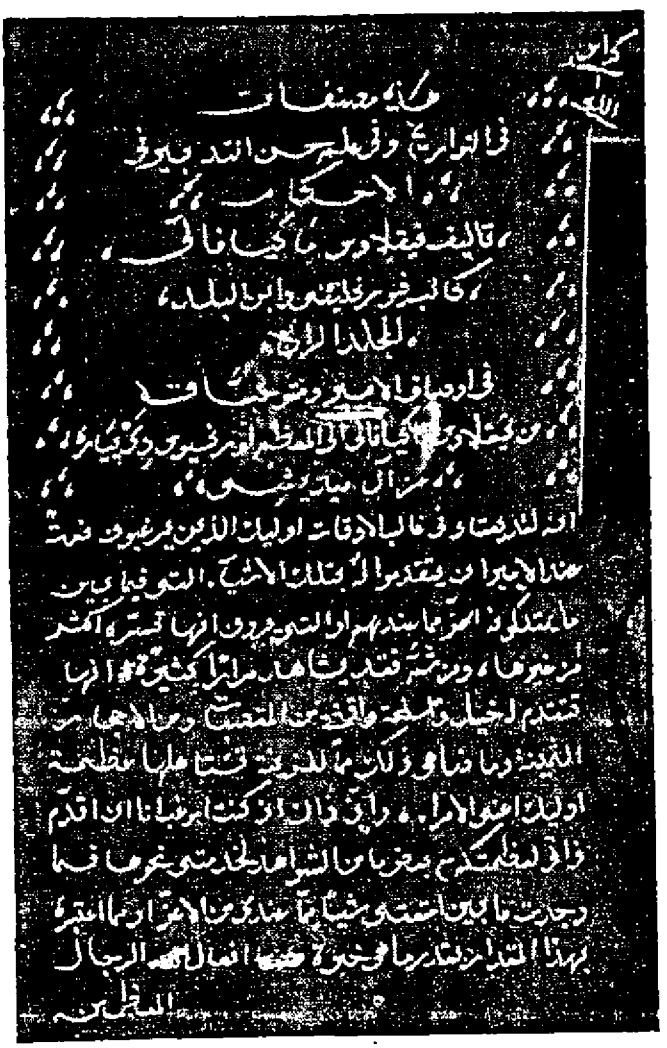

الصفحة الأولى من مخطوطة الترجمة

لكونه فيها قليل المعرفه . . . وكون الكتاب المذكور نقل للطليانية ، وكان يفسر بها حين قراءة المعلم للدرس ، وخفت من أن يكون وقع فى شىء منه اللبس ، تصفحته ثانيا مع على أفندى هيبه على أصله المطبوع بالفرنساوية ، حتى وقفت على حقيقة ما كنت فيه أتردد ، وتيقنت صحته بالكلية . .»[١]

وهكذا كان الشأن فى كل الكتب التى ترجمها عنحورى ، فهى جميعاً كتب فرنسية الأصل .

ويبدو أن النظام كان يقضى بأن يختص كل شيخ من المحررين بواحد من هيئة المترجمين يعنى بتصحيح الكتب التى يترجمها ، وقد قام بتصحيح الكتب التى ترجمها عنحورى ، الشيخان محمد عمران الهراوى وأحمد حسن الرشيدى[٢] .

وكان يعهد لعنحورى أحيانا — ولعل ذلك لمقدرته الممتازة عن إخوانه — بمراجعة الكتب التى يترجمها غيره ، وهنا كانت تتكرر الرواية ، فيترجم له الكتاب أيضاً إلى اللغة الايطالية ليتمكن من مراجعته ، ومثال ذلك ماجاء فى مقدمة كتاب (إسعاف المرضى من علم منافع الأعضا) ، وهو من تأليف المسيو (سوسون) المدرس بمدرسة الطب بأبى زعبل وترجمة الدكتور على هيبه ، أحد خريجى البعثات ، فإنه « بعد فراغ ترجمته قابل معظمه الخواجا عنحورى المترجم بهذه المدرسة ؛ مع الشيخ ابراهيم الدسوقى أحد المصححين بها ؛ على أصل طليانى ؛ نقل له من الأصل الفرنساوى ؛ فكان الشيخ ابراهيم يقرأ العربى والخواجا عنحورى يقابل عليه فى الأصل الطليانى[٣] » .

(ج) جورج فيدال :

سورى ماروني من حلب ، لم تذكر عنه المراجع شيئاً كثيراً أو قليلا ، وإن كان الأب قرألى قد أثبت فى كتابه (السوريون فى مصر) نقلا عن وثائق العماد والزواج والوفاة المحفوظة بسجلات الآباء الفرنسيسكان أن طفلا اسمه (جرجس بن الياس فيدال (طيطى) وهو ماروني من حلب[٤]) قد عمد فى سنة ١٧٩٥ ، وليس لدى مايثبت أو ينفى أنه هو جورج فيدال المترجم بعدئذ بمدرسة الطب المصرية . فإذا صح أنه هو ، وأنه التحق بمدرسة الطب عند انشائها ، فإنه يكون قد التحق بها وعنده من العمر ثنتان وثلاثون .

وقد كان فيدال يترجم عن الفرنسية إلى العربية ، وقد اختص بترجمة كتب الأستاذ برنار Bernard فترجم منها :

---

(١) ص ٤ من مقدمة الشيخ محمد الهراوى للكتاب .

(٢) انظر مقدمات الكتب التى ترجمها عنحورى ، وخاصة الأول الصريع ، ومنتهى الاغراض .

(٣) ص ٨ من الكتاب .

(٤) قرألى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٣٠ ، انظر نص المرجع ، ص ١١٢ حيث ورد فى سجل الزواج فى سنة ١٧٥٣ اسم « جرجس تيطى » الحلبى الماروني ، تسمى بعدئذ فيدال » .

١ — قانون الصحة 'Des Règles de l'hygiene et de la médecine appliquée du corps humain. وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٨ .

٢ — المنحة فى سياسة حفظ الصحة، وطبع فى بولاق، رمضان سنة ١٢٤٩ .

وكان يقوم بتصحيح الكتب التى يترجمها فيدال، الشيخ محمد عمران الهراوى ، ذكر هذا الشيخ فى مقدمته لكتاب المنحة أن (الخواجا برنار، جمع هـــذا الكتاب من مجلدات كبار، وترجمه من الفرنساوى للعربى بالكتابة والمقال ، المترجم الحلبى جورجى فيدال [١]) .

وذكر فى خاتمته أن هذا (ثالث كتاب طبع من الكتب الجديدة بعد ترجمته وقراءة معظمه فى المدرسة المفيدة التى أنشـأها بأبى زعبل صاحب السعادة، لتنتشر علوم الطب فى مملكته الوقادة ، على يد مصحح كله عند الترجمة، محرر جمله لدى القراءة والمقابلة . مفرغه فى قالب التصانيف الأولية ، صائغه على تمثال التآليف العربية ، مؤاخيه حال القراءة والجمع ، موافيه عند التثنى والطبع ، مغفور المساوى، محمد الهراوى... [٢]) ويقع هذا الكتاب فى جزء واحد من ٤٠٤ صفحة وقد طبع منه ١٠٠٠ نسخة .

(د) أوغسطين سكاكينى :

سورى الأصل ، ، أسرته من دمشق وهو من أسرة سكاكينى التى اشتهرت فى مصر بعد ذلك ، ويقول سركيس [٣] أنه ابن جبريال بن ميخائيل بن ابراهيم السكاكينى ، المتوفى بدمشق سنة ١٧٦٦ ، ويذكر أن أباه جبريال سافر مع (نابليون بونابرت) (ولعله يقصد مع الحملة الفرنسية) إلى باريس وأقام بها .

وقد أقام أوغسطين مدة فى (مارسيليا) ثم ارتحل إلى تونس حيث تزوج من سيدة فرنسية اسمها (ترزيا وردوتا) Th. Verduta ، ثم سافر إلى مصر، وعين مترجما بمدرسة الطب ، وترجم عن الفرنسية إلى العربية :

كتاب العجالة الطبية فيما لا بد منه لحكام الجهادية . وهو من تأليف (كلوت بك) وطبع فى مطبعة مدرسة الطب بأبى زعبل سنة ١٢٤٨ .

وقد أثنى كلوت بك عليه وعلى زميله فيدال فى تقريره الذى كتبه عن جهود مدرسة الطب فى سنتها الأولى ، قال : « والأعمال الأولى التى أتمها كل منهما تستحق التشجيع ويؤمل من اشتراكهما فى ترجمة المؤلفات أفضل النتائج »[٤] ، غير أنه يبدو أنهما لم يستمرا فى عملهما طويلا ، فقد كان هذا هو الكتاب

---

(١) ص ٣ من كتاب المنحة .

(٢) ص ٤٠٤ من نفس الكتاب .

(٣) معجم الكتب العربية ، عامود ١٠٣٥ ، وانظر أيضا جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية الخ ، ج ٤ ص ١٦٣ .

(٤) Clot, Compte rendu . . . .p45.

الوحيد الذى ترجمه سكاكينى ، وطبع سنة ١٢٤٨ ، كما أن فيدال لم يترجم إلا كتابين اثنين : طبع اولهما سنة ١٢٤٨ وثانيهما سنة ١٢٤٩ ، بينما الكتاب الأخير من الكتب التى ترجمها زميلهما يوحنا عنحورى طبع سنة ١٢٥٤ ، ولهذا أرجح — وإن كان يعوزنى الدليل المادى — أنهما تركا هذا العمل حوالى سنة ١٢٤٩ .

(هـ) يعقوب :

واحد من المترجمين السوريين ، وهو الوحيد من بين زملائه الذى أغفلت المراجع المعاصرة ذكر شىء عنه البتة ، وكل ما نعرفه عن جهوده أنه ترجم الكتابين الآتيين عن الفرنسية إلى العربية .

١ — دستور الأعمال الأقراباذينية لحكماء الديار المصرية ، وهو كتاب ألفه « أرباب المشورة الصحية جناب مير اللوى « كاوت بك » ، وقائمُ المقام « ديباجى » و « دوتوش » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٢ ، وقد جاء فى مقدمته مايلى : « وبعد فهذا كتاب عظيم القدر ، لطيف الحجم ، يحوى من كتب الأدوية الجم ، عمله أرباب المشورة الصحية ، بمصر المحمية ، جامعاً لكل مايلزم للاجزاجية ، مغنياً لهم عن مطالعة كتب الأقراباذين والمفردات ، ومراجعة قوانين الحسابات ، عند طلب الأدوية وأداء حسابها للأجزاخانات ، وسموه . . دستور الأعمال الأقراباذينية لحكماء الديار المصرية . . وقد ترجم هذا الكتاب بمدرسة الطب بأبى زعبل الخواجا يعقوب ، وقوبل بمجمع من المترجمين ، وبعض أهل العلم المصححين ، ثم حرر بعد جمعه ، وهذب عند طبعه ، على يد مغفور المناوى محمد الهراوى » .

٢ — كتاب الأقراباذين ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٣ .

ولم تكن له جهود فى الترجمة فى السنوات الأولى من تاريخ مدرسة الطب ، فلعله ألحق بها مترجماً بعد خروج فيدال وسكاكينى ، إن صح الغرض الذى ذهبنا إليه .

(د) يوسف فرعون :

بعد إنشاء مدرسة الطب البشرى بسنة واحدة أنشئت مدرسة الطب البيطرى (أى فى سنة ١٨٢٨) ، وقد قام التدريس فيها على النظام الذى كان متبعاً فى مدرسة الطب البشرى ، فكان يقوم بترجمة الدروس التى يلقيها الأساتذة مترجم ، وكان هذا المترجم ايطالى الجنسية ، على معرفة بالعربية والفرنسيه ، اسمه « ميخائى ياجو » . .

حدث هذا فى السنين الأولى من تاريخ المدرسة ، وكان مقرها الأول فى رشيد ، وناظرها المسيو « هامون » ، وكان إلى جانب المترجم شيخ أزهرى هو الشيخ مصطفى حسن كساب لتصحيح الدروس التى ينقلها المترجم إلى العربية ، ولكن يبدو أن هذا المترجم لم يقم بواجبه خير قيام ، فقد كتب ناظر المدرسة فى أحد تقاريره : « إن المترجم كسول ، لا يقوم بعمله خير قيام وهو لا يفهم المصطلحات الفنية ،

ولا يحسن نقل آراء الأستاذ إلى التلاميذ . . . الخ [١] » .

نقلت المدرسة بعد ذلك إلى أبي زعبل . ثم إلى شبرا ونظمت نظاماً جديداً وعزل المترجم الإيطالي وألحق بها مترجم سوري نشيط هو يوسف فرعون .

وأسرة فرعون من أقدم وأشهر الأسر السورية في مصر والشام [٢] . وقد تولى منهم التزام الجمارك في مصر وزعامة الجالية السورية ، أنطون قسيس فرعون . وذلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد ذكرنا في كتابنا عن تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية شيئاً عن هذا الرجل ، ومركزه ، وجهوده ، ورحيله عن مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، ومقامه في « تريستا » وحصوله هناك على لقب «كونت» .

ولسنا نعرف بالتحديد نوع علاقة مترجمنا هذا بالكونت انطون قسيس ، ولكنه ينتمي بلا شك إلى نفس الأسرة ، ومعرفته الوثيقة بالفرنسية ترجح ذهابه لفرنسا ، وتلقيه العلم بها ، ومقامه بين ربوعها .

ومن سجل كتبه التي ترجمها يتضح أنه التحق بهذا العمل في نفس الوقت الذي التحق فيه زميلاه فيدال وسكاكيني بمدرسة الطب البشري ، فإن أول كتاب ترجمه طبع في بولاق سنة ١٢٤٩ ، وقد قام فرعون بترجمة الكتب الآتية :

١ — رسالة في علم البيطارية ، ترجمها عن الفرنسية إلى العربية ، وطبعت في بولاق سنة ١٢٤٩ .

٢ — التوضيح لألفاظ التشريح — بيطري — تأليف المسيو « جيرار » المدرس بمدرسة الطب البيطري ، ترجمه عن الفرنسية إلى العربية ، وطبع في بولاق سنة ١٢٤٩ .

٣ — رسالة في علم الطب البيطري ترجمها عن الفرنسية إلى العربية ، وطبعت في بولاق سنة ١٢٥٠ ، (وقد طبعت هذه الرسالة طبعة ثانية في سنة ١٢٦٠) .

٤ — قانون نامهٔ بيطاري ، ترجمه عن الفرنسية إلى التركية ، وطبع في بولاق سنة ١٢٥٠ .

٥ — التحفة الفاخرة في هيئة الأعضاء الظاهرة [٣] ترجمه عن الفرنسية إلى العربية ، وطبع في بولاق سنة ١٢٥١ .

---

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٣١١ . أنظر أيضا الصفحات السابقة واللاحقة بنفس المرجع .

(٢) أنظر في : (محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر » للأب قسطنطين الباشا ص ٥٣ — ٥٧) صورة رسالتين إحداهما بتاريخ غرة كانون الثاني سنة ١٧٩٠ (٦ ربيع آخر ١٢٠٤) صادرة من الكونت قسيس فرعون من مدينة « تريستا » إلى أعيان طائفته الدينية في مصر القاهرة بوقف داره وأملاكه في مصر على دير الخاص ؛ والثانية في نفس التاريخ ومنه أيضا إلى الخوري ديمتريوس رئيس الرهبان المخلصين في مصر ، وتتعلق بنفس الموضوع . أنظر أيضا عن أفراد الأسرة ومراكزهم الدينية والمالية قرألي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٠ و ١٣٢ و ق ٢ . ص ٣ و ٥ و ٢٨ . وميخائيل بريك . تاريخ الشام . ص ١١٥ — ١٢٠ .

(٣) هذه هي الخمسة كتب التي تم طبعها حتى سنة ١٢٥٠ — ١٢٥١ من كتب الطب البيطري المترجمة . ومع هذا فقد ذكر في تقويم النيل ، ج ٢ . ص ٤٢٥ أنه « صدر أمر من محمد علي باشا إلى وكيل الجهادية في ربيع الثاني سنة ١٢٥٠ بطبع ١٠٠٠ =

٦ — المادة الطبية البيطرية ، عن الفرنسية إلى العربية ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ .

٧ — نزهة الأنام فى التشريح العام ، تأليف المسيو « لافارج » المدرس بمدرسة الطب البيطرى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ .

٨ — تحفة الرياض فى كليات الأمراض ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ .

٩ — غاية المرام فى الأدوية والأسقام ، تأليف « جرجوارو لابتو » المدرسين بالمدرسة طبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ .

١٠ — روضة الأذكيا فى علم الفسيولوجيا ، تأليف المسيو « لافارج » وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٦ .

١١ — الأمراض الظاهرة فى الطب البيطرى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٦ .

١٢ — منتهى البراح فى علم الجراح ، تأليف المسيو « برنس » المدرس بالمدرسة ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٦ .

١٣ — نزهة الرياض فى علم الأمراض ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٨ .

١٤ — أجل الأسباب فى أحل الاكتساب ، تأليف المسيو « طايو الافرنجستانى » ، وقام على تصحيحه الشيخ نصر أبو الوفا الهورينى ، ولم يطبع هذا الكتاب بل توجد منه نسخة مخطوطة[1] بخط الشيخ الهورينى فى دار الكتب المصرية رقم ٥٨ زراعة ، فرغ من كتابتها فى يوم الجمعة العاشر من رمضان سنة ١٢٥٩ .

وعدد هذه الكتب[2] ١٤ كتاباً منها ١٣ ترجمت عن الفرنسية إلى العربية وكتاب واحد ترجم عن

= نسخة من كتاب علاج الحيوان المختصة بصنعة البيطرية . الذى صار ترجمته من اللغة الفرنسية إلى العربية حسب انتهاء سليمان باشا المجلس . لما فيه من الفائدة والمزايا » . غير أنى لم أوفق للعثور على كتاب بهذا العنوان . طبع فى تلك السنة فى أى فهرس من فهارس الكتب العربية المطبوعة أو المخطوطة .

(١) أنظر الفهرس الجديد للكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية . ج ٦ . ص ٨١ — ٨٢ .

(٢) ذكر عزت عبد الكريم . المرجع السابق . ص ٣٢٤ . نقلا عن بعض وثائق عابدين . دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ من ترجمة تقرير الديوان عن تنفيق المدارس فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧ . ان يوسف فرعون قد ترجم « أكثر من ٢٠ كتابا » فى الطب البيطرى . وقد ذكر جورجى زيدان . المرجع السابق . ص ١٦٣ . أسماء أحد عشر كتابا منها . كما ذكر سركيس فى معجمه أسماء اثنى عشر كتابا منها . وقد استطعت هنا أن أزيد عليها كتابين . ولم أوفق للعثور على بقية كتبه التى ترجمها ان صح الرقم الأول . وقد ذكر فى ج ٦ من فهرس دار الكتب المصرية . ص ٤٩ كتاب فى الجغرافيا اسمه « الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار » وأنه « تأليف أحد المستشرقين الأفرنج فى زمن محمد على . . نقله إلى اللغة العربية يوسف فرعون . . . وصحح بمعرفة رفاعة بك بدوى رافع الطهطاوى .. طبع بالطلة سنة ١٨٣٦ (١٢٥١) وهذا خطأ واضح لأن فرعون كان فى تلك السنة مترجما بمدرسة الطب البيطرى فى مصر — لا فى بالطة — ويبدو لى أن هذا الكتاب من الكتب العربية التى طبعت فى بالطة ثم أعيد تصحيحه وطبعه فى مصر بعد ذلك . فقد جاء فى الصفحة الأولى من الطبعة المصرية « طبع فى مطبعة مكتب الطوبجية بناحية طرة بأمر حضرة أمير الاوا « سكورابيك » وبتصحيح الفقير رفاعة رافع الطهطاوى . مترجم الكتب المذكور .. سنة ١٢٥٠ من الهجرة . وقال رفاعه فى خاتمة هذه الطبعة . ص١٤٣ « هذا ما نحونا نحو تصحيحه . واجتهدنا حسب الطاقة فى تصليحه . وأوقفناه موقع التآليف العربية . وكانت عبارته بالطية وحشية . فجاءت هذه الطبعة الثانية بالنسبة للعبارة أظرف من طبعة بالطة وأجل . ولكن ينبغى أن نقر بأن الطبعة الأولى بمزية الضبط بالشكل أكمل » (لاحظ أن كتب عهد محمد على خالية تماما من الشكل) .

الفرنسية إلى التركية ، مما يرجح أن فرعون كان على علم أيضاً باللغة التركية .

وقد قام بتصحيح كتبه وتحريرها الشيخ مصطفى حسن كساب ، ماعدا كتاب « أجل الأسباب فى أحل الاكتساب » ، فقد قام بتصحيحه الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني ، مصحح الكتب بمدرسة الزراعة ، ولا عجب فهذا الكتاب هو الوحيد فى فن الزراعة من بين جميع الكتب التى ترجمها فرعون ، وكلها فى علم الطب البيطرى وفروعه ، وقد دأب الشيخ كساب على وصف صديقه دائماً بأنه « الجراحة يوسف فرعون المترجم الماهر » و « المترجم البارع » و « المترجم الحاذق »[1] .

ومع هذا فقد كان نظام الترجمة فى ذلك العصر يقضى أحياناً بأن يعرض على لجنة أخرى بمراجعة ماترجمه المترجمون السوريون ، كما حدث فى بعض الكتب التى ترجمها عنجورى . وكما حدث لكتاب « التوضيح لألفاظ التشريح » ، الذى ترجمه فرعون ، فنى ٢٠ جمادى الأولى ١٢٤٨ قرر مجلس الجهادية بناء على ما ورد على مجلس الشورى فى مدرسة الطب البيطرى الموافقة على طبع كتاب التشريح الذى ترجم بعد مراجعة الترجمة بمعرفة الشيخ رفاعة أفندى وهرقل البيكباشى ، واتضاح صحتها . . »[2] .

---

(١) أنظر بعض الكتب السابقة مثل : منتهى البراح . ص ٣ . وغاية المرام . ص ١ . والتوضيح . ص ٣ — ٤ . وروضة الأذكيا ص ١ — ٢ الخ . هذا وقد نبغ من أسرة فرعون مترجم آخر اسمه « فلوريان فرعون » وذكر سركيس فى معجمه أنه « درس كأجداده اللغات الغربية والشرقية . وبقى مدة مترجما فى الجزائر . ثم انتقل إلى باريس . وكان محررا فى جريدة « الفيغارو » وكان مولعا فى الصيد . فنقل كتاب محمد بن مكلى المسمى (أنس الملا بوحش الفلا) إلى اللغة الفرنسية » وطبع فى باريس سنة ١٨٨٠ مع النص العربى .

(٢) الوقائع المصرية . العدد ٤٤٦ . غرة جمادى الآخرة ١٢٤٨ . ويؤيد هذا القرار ما ذكره الشيخ كساب فى مقدمة الكتاب الذى تم طبعه فى بولاق فى غرة صفر ١٢٤٩ ، فقد قال فى ص ٣ — ٤ « ثم بعد تصحيحه ومقابلته بأصله . صدر أمر كريم من رؤساء ديوان الجهادية بأن يقابله كل من الفاضل . . رفاعة افندى رافع . والجناب المكرم بيكباشى هرقل . فباشروا بالامتثال له . ومقابلته ليس لها مثال . . . الخ » .

٢ ــ المترجمون من خريجي المدارس والبعثات

تقـــدمة

كان هؤلاء السوريون الذين قاموا بالترجمة فى عهد محمد على طائفة محدودة العدد والجهد ، اقتصرت جهودهم كما رأينا على ترجمة الكتب الطبية ، وقد كان استخدامهم فى هذا العمل ضرورة أوجدتها الظروف ريثما يتم انشاء المدارس الجديدة ، ويتم طلابها دراساتهم ، وريثما تبعث البعثات إلى دول أوربا فتقبس قبسا من نور العلم الأوروبى ، وتعود إلى مصر .

ولم يكن محمد على يقصد ــ بانشاء هذه المدارس وإيفاد هذه البعوث ــ إلى تخريج طائفة من العارفين بالعلوم الأوروبية فحسب ، بل كان يقصد أيضاً إلى أن يقوم هؤلاء الخريجون بترجمة أمهات الكتب فى فروع العلوم المختلفة إلى اللغتين العربية والتركية ، وتستعمل هذه الكتب المترجمة فى مدارسه الجديدة ، فيستغنى بذلك عن الأساتذة الأوروبيين ، ويمكنه تمصير هذه العلوم الجديدة ، ونشرها بين المصريين .

ولقد كان محمد على حريصاً الحرص كله على أن يقوم هؤلاء التلاميذ ــ وهم بعد فى طريق التحصيل . ثم بعيد تخرجهم ، أو عودتهم من أوربا ــ بترجمة الكتب فيما اختصوا فيه ، كتب مرة فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٤٣ (١٢ نوفمبر ١٨٢٧) إلى ضباط الجيش المصرى ، يذكر أنه كان يأمل أن تلاميذ (السنة الثالثة بالمدرسة الحربية) قد اتقنوا ما يدرس لهم من الفنون الحربية والهندسية ، وأنهم « قد ترجموا من اللغة الفرنسية بعض أشياء مما يفيد مصلحتنا ، ويوافق أصولنا [1] » .

وفى ٢٢ ربيع الأول سنة ١٢٤٩ (١٠ سبتمبر ١٨٤٣) صدر أمر منه إلى باغوص بك « بأنه كان تنبه على «كلوت بك» بالزام الطلبة الذين أرسلوا إلى أوربا لتلقى فنون الطب بها بترجمة الكتب التى يدرسونها أولا بأول إلى العربية وارسالها ، فإذا لم تكن وصلت التراجم ، يكتب للطلبة أنفسهم على أوامر من المختومة بختمه (الوالى) الموجودة بطرف زكى افندى مأمور ديوان خديوى بالاسكندرية بمعنى ذلك بحيث تكون الأوامر بالعربى لأولاد العرب ، وبالتركى لأولاد الترك ، وعرض ما يكتب قبل إرساله [2] » .

هكذا كانت تصدر الأوامر من محمد على الى الطلاب ، وهم بعد فى دور التحصيل فى أوربا بأن يقوموا بترجمة الكتب الى العربية والتركية ، فاذا عادو الى مصر لم ينتظر حتى يصلوا الى العاصمة ، ويحظوا بمقابلة بل كان يصدر اليهم الأوامر وهم بعد فى دور الحجر الصحى أن يبدأوا الترجمة ؛ صدر أمر منه إلى ناظر

---

(١) وثائق عابدين ، معية تركى ، دفتر ٢٦ ، رقم ٢١٣ ، بتاريخ ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٤٣ .

(٢) تقويم النيل ، ج ٢ ص ٤١٤ .

المهمات فى ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٥٠ (٢٧ إبريل ١٨٣٥) ، بأنه قد اطلع على الإفادة الواردة إليه بعد دخول محمد بيومى أفندى الحاضر من أوربا الكورينتينا ، ووجوده معه للمساعدة فى ترجمة كتاب الهندسة الوصفية وعدم اشتغال رفيقه حسن الوردانى أفندى بشىء بالنسبة لدخوله بالكورنتينا ، ويشير بأنه يظن لياقة المذكور للترجمة ، فيلزم اعطاؤه كتابا آخر لترجمته مدة مكثه بالكورنتينا . . .[1] .

ولما عاد أعضاء بعثة سنة ١٨٢٦ من أوربا استقبلهم فى ديوانه بالقلعة ، وأعطى كل منهم كتابا فرنسيا فى المادة التى درسها فى أوروبا ، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى اللغة العربية ، وأمر بحجزهم فى القلعة ، وأن لا يؤذن لأحد منهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد إليهم بترجمته[2] .

هذا هو القانون العرفى الذى وضعه محمد على ، وأوجب أن يتبعه كل عائد من بعثة ، ذلك أن يترجم هذا العضو كتاباً فى فنه الذى تخصص فيه ، بل لقد كان يعهد أحيانا إلى بعض أعضاء البعثات بترجمة كتب فى علم أو فن آخر غير ما تخصصوا فيه ؛ أرسل الشيخ احمد حسن الرشيدى لدراسة الطب فى فرنسا ، فلما عاد إلى مصر عهد إليه بترجمة كتاب فى الجغرافيا ، يقول فى مقدمته : « لما من الله على بالعود إلى وطنى من بلاد الأوربا ، وقيدت بمدرسة الطب بمصر حكيما ومعلما من المعلمين الأطباء ، تشاور أرباب ديوان المدارس والعلوم ، فى اختيار كتاب أقوم بترجمته ، حسبما تقتضيه القوانين والرسوم ، . . . فاتفق رأيهم على كتاب لازم لجميع المدارس الملكية ، ومحتاج إليه فى المكاتب السلطانية ، وهو المرسوم بالدراسة الأولية فى الجغرافيا الطبيعية . . . الخ[3] .

---

(١) تقويم النيل ، ج ٣ ص ٤٣٤ .

(٢) أنظر الرافعى ، عصر محمد على ص ٥٣٧ .

(٣) الدراسة الأولية فى الجغرافيا الطبيعية ، تأليف « فلكس لامروس » وترجمة الرشيدى ، بولاق ، ١٢٥٤ ، ص ٣ .

١ ــ عثمان نور الدين

أول مبعوث مصرى إلى أوروبا

أول بعثة أرسلت سنة ١٨٠٩ لا سنة ١٨١٣ ، مناقشة رأى الأمير عمر طوسون والدكتور عزت عبد الكريم ، ترجمة عثمان ، ناظر مدرسة بولاق ، ينظم مكتبتها وهى أول مكتبة ، زيارة « بروكى » للمدرسة والمكتبة ، تلاميذ المدرسة يشتغلون بالترجمة تحت اشراف عثمان ، رفاييل يضع لهم قاموسه ، عثمان يشترك فى وضع برامج النظام العسكرى الجديد ، يعين سر عسكر الجيش المصرى ، يشرف على ترجمة قوانين البحرية الانجليزية الى التركية ، يشترك فى تنظيم الاسطول المصرى ، علاقته الوثيقة بمحمد على ، اختياره أميرا للاسطول المصرى ، جهوده فى إنشاء مدارس قصر العينى وأركان الحرب والطب ، أثره فى إرسال البعثات إلى فرنسا يخضم ثورة كريت ، النزاع بينه وبين الباشا ، استقالته وسفره إلى الاستانة ، الأسباب ، رأى الأستاذ شفيق غربال بك فى الرجل ، الكتب التى ترجمها .

وجه محمد على بعوثه إلى مختلف دول اوربا ، ولم يختص واحدة منها بهذه البعوث دون الأخرى ، وإن كان العدد الأكبر من هذه البعوث قد أرسل إلى فرنسا ، وقد وجهت هذه البعثات لدراسة العلوم والفنون الأوروبية المختلفة ، ولهذا نجد أن أعضاءها الذين شاركوا فى حركة الترجمة قد ترجموا كتباً مختلفة الفنون والعلوم ، وإن كنا سنلاحظ أن معظم الكتب التى ترجموها كتب طبية ورياضية .

كان طليعة البعثات فى عهد محمد على ورائدهم الأول ، عثمان سقه باشى زاده أو عثمان نور الدين باشا فيما بعد ، ذكر الأمير عمر طوسون [١] ، ونقل عنه الدكتور عزت عبد الكريم انه كان واحدا من أعضاء البعثة الثانية فى عصر محمد على ، وانه ارسل إلى فرنسا سنة ١٨١٩ وعاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ ؛ وذكر أيضا أن أولى بعثات محمد على إلى أوربا هى التى أوفدت إلى إيطاليا بين سنتى ١٨١٣ و ١٨١٦ ، وكان أهم أعضائها نقولا مسابكى مدير مطبعة بولاق فيما بعد .

هذان هما أحدث المراجع العربية التى كتبت عن البعثات ، وعنهما نقلت معظم المراجع الأخرى [٢] . هذه الحقيقة ، غير أن البحث قد دلنا على أن هذا الرأى بعيد عن الصواب ، وعمدتنا فى تحقيقه وثيقة معاصرة هى خطاب [٣] تاريخه ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢٠ موجه من « بيزونى » Pezzoni الى « ريبوبيير » Ribeaupiere وهما من رجال القنصلية الروسية بالقاهرة فى عهد محمد على .

---

(١) البعثات العلمية فى عصر محمد على ص ١٠ و ١١ وتاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على ص ٤٣٤ و ٤٣٥ .

(٢) انظر مثلا ، الرافعى ، عصر محمد على ، ص ٢٠٥ .

(٣) Cattaui, le Regne du Med. Ali, . . . etc ' t. i, p. 367.

فى هذا الخطاب ترجم « بيزونى » لعثمان نور الدين فذكر أنه واحد من التلاميذ الذين أرسلهم فى سنة ١٨٠٩ المغفور له « يوسف بكتى : Joseph Bokty »[١] فتصل السويد العام فى القاهرة . يستقر العلم فى ايطاليا على نفقة محمد على باشا . ثم ذكر أنه مكث يطلب العلم فى « بيزا » و « ليفورنو » نحو الخمس سنوات . ثم رحل إلى فرنسا ليتم بها تعليمه فلبث بها سنتين . وعاد إلى مصر أخيرا فى سنة ١٨١٧ .

من هذا يتضح :

١ — أن أول بعثات محمد على أرسلت الى ايطاليا سنة ١٨٠٩ لا سنة ١٨١٣ .

٢ — لم يعرف من أفراد هذه البعثة غير عثمان نور الدين . وقد تلقى العلم فى ايطاليا ثم فى فرنسا . لا فى فرنسا فقط .

٣ — انه مكث فى البعثة نحو سبع سنوات من ١٨٠٩ — ١٨١٧ . لا سنة واحدة (من ١٨١٩ — ١٨٢٠) ، كما ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون .

ويهمنا أن نقرر بعد ذكر هذه الحقائق أن محمد على وفق حقا فى اختيار عثمان نور الدين . فقد كان هـــذا التلميذ من خيرة أعضاء البعثات[٢] . فلما عاد الى مصر كان ساعد محمد على الأيمن فى نهضته الحربية والتعليمية .

وقد اقترنت هاتان النهضتان . كما اقترن انشاء المطبعة وتاريخ الترجمة باسم عثمان نور الدين وجهوده . غير أن حادثة سياسية خاصة — سنعرض لها فيما بعد — كانت السبب فى حدوث شقاق بينه وبين مولاه محمد على . وانتهى هذا الشقاق بسفره الى الدولة العثمانية . ولهذا نلاحظ أن وثائق السنوات الأخيرة من

---

(١) أسرة بكتى من أقدم الأسر السورية الشهورة، وقد نزح أفراد كثيرون منها إلى مصر فى القرن الثامن عشر ، وقد أطلقهم معرفتهم باللغات الأوربية الى تولى مراكز القنصلية للدول الأوروبية فى القاهرة ، وقد ورد فى سجلات الصاغ والزواج والوفاة للآباء الفرنسيسكان بالاسكندرية اسم « يوسف بكتى » ، وذكر أنه كان حاضرا فى حفل زواج أحد الافرنج فى ١٤ نوفمبر ١٧٥١ ، ثم فى ٨ يناير ١٧٥٤ وقت عرابا عند عماد طفل انجليزى ، وقد ورد فى سجلات القاهرة أنه فى ٢٠ ابريل ١٧٤٩ تم زواج جرجس بكتى ، أنظر: قرألى، السوريون فى مصر ، ج١،ق ١ ، ص ١٢٠ ، ١٠٨ ، حيث يذكر أن جد هذه الاسرة « أبو جبران » وفد على مصر وتوفى بها سنة ١٧٦٢ ، وهو فى سن الثمانين ، وقد برز من هذه الاسرة فى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر رجلان ، أولهما بطرس بكتى ، وكان قنصلا للروسيا فى القاهرة ، وقد مدحه الشاعر المصرى الشيخ شهاب الدين بعض الابيات،وكان لهذا الرجل الفضل الاكبر فى تمهيد السبيل لسفر الشيخ محمد عياد الطنطاوى لتدريس اللغة العربية فى جامعة « بطرسبورج » ، وثانيهما يوسف بكتى هذا ، وفضله هنا واضح فى مساعدة محمد على عند إيفاد أول بعثاته إلى ايطاليا ؛ أنظر: الباشا ، عاصرة فى تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فى مصر ، ص ١٨ و ٤٣ ، وشيخو ، الآداب العربية الخ . ج ١ ص ٨٢ وطنطاوى ، المترجم السابق ، فى صفحات كثيرة منه ، وانظر أيضا مقالا : الدكتور بروز والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى، مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول، العدد الثانى، ١٩٤٤ .

(٢) أنظر: كلوت بك ،لمحة عامة إلى مصر ، ج ٢ ، ص ٥١٠ حيث يقرظ عثمان نور الدين ويعده من نوابغ البعثات الأولى

عصر محمد علي ومراجع عن العصر الحديثة تهمل ذكر عثمان نورالدين — عن قصد أو عن غير قصد — . غير اننا نحب أن نعرض لتاريخ هذا الرجل بشيء من التفصيل تقديرا له ولجهوده .

أسرته تركية من جزيرة « مدللي » . رحلت الى مصر . واستقرت بها ، وكان أبوه « فراشا » أو « سقاء » بقصر محمد علي ومن هنا اكتسب اسمه الأول « عثمان سقه باشي زاده » ، التقطه محمد علي — وقد كانت له ميزة اختيار الرجال وتكوينهم — ، وأرسله في بعثته الأولى لتلقي العلوم الحربية والبحرية وفنون السياسة وادارة الحكم في ايطاليا وفرنسا .

ولما عاد الى مصر في سنة ١٨١٧ ، عين « كاشفا » في حرس محمد علي الخربي ، ثم عهد اليه بتنظيم الكتب الكثيرة التي أحضرها معه من فرنسا — اجابة لرغبة محمد علي — . وبهذا كون في قصر ابراهيم بن محمد علي في بولاق أول مكتبة وجدت في عصر محمد علي ، ثم الحق به في سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ بعض التلاميذ ليدرسوا عليه وعلى مدرسين آخرين الهندسة واللغات العربية والتركية والايطالية .

هذه هي مدرسة بولاق ، وهي أول مدرسة نظامية أنشئت في عصر محمد علي ، وذلك تنفيذا لاقتراح عثمان نور الدين نفسه ، وقد تولى نظارتها والاشراف عليها ، وكان يدرس لتلاميذها الهندسة واللغة الفرنسية .

وقد زار هذه المدرسة الرحالة الإيطالي « بروكي » في ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ ، وذكر أنه كان بهذه المدرسة ثلاثة مدرسين مسيحيين هم:

١ — « دون كارلو بيلوتي » وهو إيطالي من « كالابريا » ، ويدرس الرياضة .

٢ — « القس سكاليوتي » من « بيدمنت » ، ويدرس اللغة الايطالية .

٣ — دون رفاييل ويدرس اللغة العربية .

ثم زار أيضاً المكتبة السابق ذكرها ، وتحدث عن أنواع الكتب التي كانت فيها ، فقال إنه رأى بها كتبا تبحث في فنون الحرب والزراعة والرياضة ، وكتباً في القانون والتشريع والأدب من بينها الكوميديا الإلهية : "Il poema di Dante" لدانتي وقال « بروكي » أيضاً أنه دهش الدهشة كلها إذ وجد في تلك المكتبة نسخا من كتب « فولتير » و « روسو » والكتاب المقدس ، ومجموعة من القصص الفرنسية لكتاب مختلفين وزادت به الدهشة وهو يتنقل بين هذه المجلدات إذ وجد مجموعة كبيرة من الكتب التي تبحث في النظم الدستورية للحكومات الأوروبية . وهذه كتب على حد قوله « لا ينتظر أحد أن يجدها في مكتبة عامة في بلد تحكم حكما أوتوقراطيا » . وراعه أخيراً أن لا يجد بهذه المكتبة كتباً خاصة بمصر وتاريخها ، إذ لم يجد بها من هذا النوع إلا رحلة فولني ، والكتاب الكبير الذي وضعه المعهد الفرنسي — يقصد كتاب وصف

مصر — وبعض أعداد من جريدة « الديكاد ».[١]

وفى هذه المدرسة أيضاً كان يقوم بعض التلاميذ بترجمة « كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع »[٢] تحت إشراف عثمان نور الدين وأساتذة المدرسة، ولتلاميذ هذه المدرسة فيها أرجح وضع رفاييل قاموسه « الايطالياني العربى » الذى طبع فى سنة ١٨٢٢، بل لقد صرح رفاييل نفسه بهذا فى مقدمته للقاموس إذ يقول: « . . . وكان إننى قد أقمت على تعليم اللغة الايطالياية (كذا) بأمر صاحب العزة . . . الحاج محمد على نائب السلطان بمملكة مصر . . . وقد اضطررت من قبل وظيفة التعليم، وسهولة درك معنى الألفاظ بهذه اللغة والتفهيم على التلامذة الدارسين؛ وعلى من ينتدب لترجمة الكتب من المتفقهين لأنى (كذا) أؤلف قاموسا ترجاناً وجيزاً .. فى اللغتين الايطالياية والعربية ..»[٣]

وكان النشاط على أتمه حينذاك لتكوين الجيش المصرى الجديد. وتدريبه على النظم الأوربية الحديثة، فقام عثمان نور الدين بترجمة الكتب الحربية المختلفة فى نظم الجيش وقوانينه وتعاليمه عن الفرنسية إلى التركية.

وفى سنة ١٨٢٢ تكونت لجنة لوضع برامج التعليم العسكرى الجديد؛ فكان عثمان نور الدين ثالث ثلاثة بهذه اللجنة. وكان العضوان الآخران: الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) وأحمد أفندى المهندس. وفى نفس السنة سافر مع سليمان باشا حتى وصلا إلى أسوان ليشترك معه فى تنظيم الفرقة الأولى للمشاة على « النظام الجديد ».

وفى سنة ١٨٢٣ عين « سر عسكر » الجيش المصرى، وحصل بذلك على لقب « بك »، وفى سنة ١٨٢٥ ترجمت قوانين ونظم البحرية الانجليزية إلى التركية تحت إشرافه، ثم عهد اليه محمد على باشا أن يتولى بنفسه الاشراف على تنظيم البحرية المصرية الجديدة، وتعليم ضباطها بالاشتراك مع الجنرال « لتلييه Letellier »، وبهذا أصبح لعثمان بك الإشراف التام على شؤون الجيش والأسطول المصريين، فبذل للنهضة بها جهودا فذة، ولما حطم الأسطول المصرى فى « نفارين » كان عثمان نور الدين المساعد الأول والمشجع الأول — بعد محمد على — للسير « سيريزى: Cerisy » على إنشاء دار الصناعة، والأسطول الجديد فى الاسكندرية.

وكان محمد على لثقته الشديدة به يعتمد عليه فى أمور كثيرة، وكان يحبه حبا جماً حتى كان لا يناديه إلا بلفظ « ولدى عثمان »،[٤] ولهذا زوجه من إحدى جوارى القصر، وبنى له منزلا غربى قصر رأس التين ليكون على مقربة منه ومن سفن الأسطول، ثم ولاه فى سنة ١٨٢٧ قيادة الأسطول المصرى بعد زوج

---

(١) Brocchi, Op. Cit. t.I, pp. 159—161.

(٢) عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٤٣٠، وانظر أيضاً: Cattaui, Op. Cit. t. I, p. 388.

(٣) أنظر مقدمة القاموس.

(٤) أنظر عمر طوسون، المرجع السابق، ص ١١، والرافعى، عصر محمد على، ص ٤٢٨ — ٤٣٠.

ابنه محرم بك ، وقد تولى قيادة هذا الأسطول فى حرب الشام الأولى،وكان لقيادته فضل كبير فى إسقاط عكا وإحراز النصر النهائى فى تلك الحرب .

هذا موجز لجهود عثمان نور الدين الحربية ، وجهوده فى تدعيم النهضة التعليمية الأولى لا تقل عنها فانه لبث بعد إنشاء مدرسة بولاق يرسم الخطط لمحمد على ، وقد نفذت هذه الخطط واحدة بعد الأخرى، ففى سنة ١٨٣٥ قام بتأسيس مدرسة قصر العينى [١] ، وكان أول مدير لها ، وفى نفس السنة أنشئت مدرسة أركان الحرب فى قرية جهاد آباد بناء على مشورته ، ولمـــا استقدم محمد على الدكتور كاوت ، وعهد اليه بإنشاء مدرسة الطب المصرية ، ترك لعثمان نور الدين سلطة الإشراف على إنشاء تلك المدرسة ، واليه رفع « كاوت بك» تقريره الأول الذى عالج فيه ما قد يعترض إنشاء المدرسة من صعاب .

وإلى عثمان نور الدين يرجع الفضل فى ايفاد بعثة سنة ١٨٢٦ الكبرى إلى باريس ، وذلك أنه اتصل أثناء تلقيه العلم فى فرنسا بالمسيو « جومار » ، أحد علماء الحملة الفرنسية ، والمشرف حينذاك على نشر جهود المعهد المصرى العلمية ، فأعجب به « جومار » ثم تحدث اليه عن الوسائل التى يمكن أن تعيد الصلة العلمية بين مصر وفرنسا قوية وثيقة واقترح عليه أن تفكر مصر فى ايفاد بعض تلاميذها لتلقى العلم فى فرنسا ، وقد حمل عثمان هذه الرغبة إلى محمد على ، وظل يحبذها لديه ، حتى وافق محمد على وأرسلت البعثة الكبرى سنة ١٨٢٦ ،وعهد إلى المسيو « جومار » [٢] بالاشراف عليها وعلى البعثات التى تلتها .

وهذا أيضا موجز لجهود نور الدين العلمية ، تبين فى وضوح أنه كان رجلا مثقفا واسع المعرفة ، فهم عن سيده أغراضه ، وراح يسعى جهده لتنفيذها . غير أنه لم يكن يقدم على مشروع من مشروعاته إلا بعد أن يقتله بحثا ودراسة ، يقول « بزونى » .Pezzoni فى خطابه السابق أن لعثمان نور الدين عناية خاصة باستشارة الكتب والمراجع لدراسة المواضيع التى يوكل إليه تنفيذها . [٣]

ولهذا تقدمت به هذه الجهود ، وهذا الاخلاص فى تنفيذها إلى أعلى الرتب ، وأهم المراكز فى الدولة ، حتى غدا ثانى رجل محبب إلى محمد على بعد ولده ابراهيم ، وحتى أصبح بنفوذه وسلطته يشترك مع بوغوص بك [٤] يوسف فى كونهما الرجلين الأولين فى الدولة اللذين يعتمد محمد على على جهودهما فى الداخل والخارج

وفى سنة ١٨٣٣ سافر محمد على باشا إلى جزيرة كريت ، ليتفقد أحوالها ، ويجرى على أهاليها ما كان جارياً عليه العمل بالديار المصرية من قوانين الاحتكارات التجارية ، ومادة تكتيب العسكرية ، فترتب على

---

(١) أنظر عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤و٣٨٩و٤٣٤ — ٤٣٦ .

(٢) نشر المسيو « جومار » تقريرا مسهبا عن هذه البعثة فى Journal Asiatique 1828 ،وقد لخص المغفور له الأمير طوسون هذا التقرير فى كتابه عن البعثات ، ص ١٢ — ٣٤ ، أنظر أيضا « كاوت بك » ، لمحة عامة إلى مصر ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

(٣) Cattani, Op. cit. t. I. p. 389,

(٤) Op. Cit. t. I, p. 388

هذه الفكرة السيئة عصيان أهل هذه الجزيرة على الحكومة الخديوية ، فارسل إليها عثمان باشا سر عسكر الدونمة المصرية بفرقة من الآلايات العسكرية . ولم يلبث أن توصل من غير مشقة باخماد نيران الفتنة بجزيرة كريد وتكفل لهم ببقاء حياة رؤساء الفتنة ، وترآى لمحمد على أن من اللزوم جعل قتل بعضهم عبرة لمن اعتبر ، فلم يقر ما شرطه لهم سر عسكر دونمته ، ولما رأى عثمان باشا أن فى ذلك إخلالا لسلامة حريته ، واخلالا بعلو مرتبته ، استعفى من وظيفته ، ولزم العزلة والاستراحة بمدينة القسطنطينية حتى وافته هناك المنية . (١)

وهكذا انسحب عثمان باشا من الميدان المصرى والحاجة إليه ماسة ، فقد كانت السنوات التالية لسنة ١٨٣٣ سنوات اعداد واستعداد للنضال العنيف بين محمد على والسلطان ، وبينه وبين الدول الأوربية . وهنا قد تتساءل : ترى هل كان حادث كريت هو العامل الأول والأخير فى انفصال عثمان نور الدين عن محمد على ؟ ويبدو لى أن هذا لم يكن العامل الأول والأخير ، بل يصح أن نقول أنه كان التكأة التى اتكأ عليها عثمان للانفصال عن سيده فى مصر ، والتجائه إلى سيده فى الاستانة .

أما ما هى الأسباب الحقيقية الأخرى ، فهذا ما لا نستطيع الجزم به لسكوت المراجع المعاصرة عن تبيانه ، ولكننا نستطيع أن نستنتج من بين السطور أن الدور الهام الذى لعبه عثمان نور الدين فى حرب الشام الأولى ، دفع السلطان إلى اجتذابه اليه ، وأنه سعى لهذا الاجتذاب سعيه ، وثار النزاع فى نفس عثمان ، وانتهى به الى ترك مصر والذهاب الى الاستانة ، بهذا الرأى يقول الأستاذ شفيق غربال بك فى مقدمته لكتاب صديقنا الدكتور ابراهيم عبده عن « تاريخ الوقائع المصرية » ، فقد قال : « ويرتبط انشاء المطبعة والوقائع برجل من رجال محمد على أهمله المؤرخون وهو جدير بعنايتهم ، أعنى عثمان نور الدين ، وهو من رجال العهد الأول من النهضة المصرية ، وكان ساعد محمد على فى الطور الأول من أطوار الاصلاح ، ثم شاءت الظروف أن ينسحب عثمان نور الدين من مجال الاصلاح المحمدى العلوى ، وأن ينضم للسلطنة

---

(١) ترجمة تاريخ الديار المصرية فى عهد الدولة المحمدية العلية ، وهو من تأليف برنار وترجمة أبو السعود افندى ، مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية ، ص ١١٨ — ١١٩ . ولأبى السعود أفندى كتاب آخر اسمه منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ عمى مصر وهو مخطوط أيضا بنفس المكتبة ، قال فيه ، ص ٤٢ — ٤٣ من هذه المخادنة ما يلى :

وبعد أن تم انقياد الصلح ... ونال باشا مصر كل النجح
نوى الى تكريد الارنحالا ... لأجل أن يصلح فيها الحالا
حل بها وغير الادارة ... بحسن تنظيم وأى إثاره
فقام من ذلك فيها قوم ... أصابهم من الأمير الموم
وآل أمرهم الى الاطاعة ... وأمر عثمان الى الاضاعة

وانظر أيضا هنرى طوسون المرجع السابق ، ص ١١ ، هامش ١ ؛ والرافعى ، عصر محمد على ، ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

العثمانية ، وكأنى بمحمد على رثد جرحه هذا العقوق أو هذه الخيانة ، فأسدل الستار على عثمان ، وسقط اسمه من الأفواه ، وأغفله المؤرخون .

وحياة عثمان نور الدين رغم قلته تثير ان ألوانا من التفكير والأحكام ، فقد توزع الرجل بين محمد على والسلطان ، واضطرب قلبه بين هذين العاملين ، وتحكم فى ولائه السيدان ، ثم اختلف كلاهما ، فكيف يكون حال عثمان ؟ مسألة لها فى الأدب ، وفى الأخلاق وفى التاريخ نظائر ، ولا يمكن أن يقال إن الحكم فيها نهائى ، [١] .

وبعد فهذا موجز عن جهود الرجل عملا وعلما ، أما العمل فكان ميدانه الجيش والأسطول ، وأما العلم فكان ميدانه التعليم ، وتأسيس المدارس ، وايفاد البعثات ، ويتوج هذا جميعا الترجمة ، وقد بذلت الجهد لإحصاء ما ترجم عثمان نور الدين من كتب ، فاعترضتنى صعوبات كثيرة أهمها :

أولا — إن الكتب الحربية التى ترجمت فى عصر محمد على قد ضاع معظمها ، وليس فى دور كتبنا منها إلا القليل النادر .

ثانياً — أن القوائم التى رصدت الكتب الحربية التى ترجمت فى ذلك العصر لم تذكر إلى جانبها أسماء مؤلفيها أو مترجميها إلا فى النادر جداً ، فلعله من بين هذه الكتب ما هو من ترجمة عثمان نور الدين .

والذى نستطيع أن نقرره أن الكتب التى ترجمها عثمان نور الدين ، كانت كلها كتباً حربية بحرية ، وأنها جميعاً ترجمت عن الفرنسية إلى لغته الأصلية التركية ، وقد عثرت منها على كتاب : «قانون نامه سفاين بحريه جهادية» وقد طبع فى بولاق سنة ١٢٤٣ . وقد ذكر سركيس باشا أنه ترجم «كتاب القواعد البحرية» وآخر فى السياسة البحرية أى قانون العقوبات [٢] ، ولعل الكتاب الذى ذكرناه واحد منهما .

---

(١) مقدمة تاريخ الوقائع المصرية ، ص (ن) .

(٢) فائق الأخبار ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

ب ــ مترجمو العلوم الطبية

الدكتور على هيبة ، كتب التى ترجمها ، الدكتور ابراهيم النبراوى ، كلمة موجزة عنه ، الكتب التى ترجمها ، الدكتور أحمد حسن الرشيدى ، ترجمة موجزة له ، الكتب التى ترجمها ، الدكتور حسن هانم الرشيدى والكتب التى ترجمها ، الدكتور عيسوى النحراوى ، الدكتور محمد الشباسى ، جهوده فى الترجمة ، الدكتور محمد الشافعى ، الكتب التى ترجمها ، الدكتور محمد عبد الفتاح ، الكتب ترجمها ،

توالت البعثات منذ سنة ١٨٢٦ ، حتى سنة ١٨٤٨ ، وأرسلت إلى دول أوربا المختلفة ، وتنوعت الدراسات التى خصص الطلاب لتحصيلها ، وكان هؤلاء الطلاب يوجهون فى بعثاتهم للتخصص فى العلوم والفنون المختلفة أولا ، ثم لإجادة اللغات الأجنبية ثانياً . حتى إذا عادوا إلى مصر اشتغلوا بالترجمة [١] .

وأخفق فى هذه البعثات البعض ، ووفق البعض الآخر ــ وهم الغالبية ــ وعاد الموفقون إلى مصر ، وتولوا شئونها الإدارية والعلمية ، ولكنهم لم ينسوا الغرض الثانى ــ الترجمة ــ بل بذل معظمهم جهوداً موفقة فى هذا السبيل ، فقدموا لمطبعة «صاحب السعادة» كتباً كثيرة نقلوها عن المراجع الأوربية الهامة

ولكننا نلاحظ أن أكثر أعضاء البعثات نشاطاً ، وأوفرهم انتاجاً ، هم الأطباء والمهندسون ، وتعليل ذلك يسير إذا عرفنا أن معظم هؤلاء الأطباء والمهندسين عينوا بعد عودتهم مدرسين ، ومساعدى مدرسين فى مدرستى الطب والهندسة ، وأنهم كانوا يتخيرون كتباً معينة مما درسوا فى أوربا ، لتدريس أصولها فى هاتين المدرستين ، حتى إذا تم لهم ترجمة هذه الكتب وتنقيحها قدموها إلى المطبعة ، وفيما يلى عرض لجهود هؤلاء الأطباء والمهندسين .

أعد اثنان من أعضاء بعثة سنة ١٨٢٦ لدراسة الطب فى فرنسا ، وهما : على هيبة والشيخ محمد الدشطوطى [٢] ، عاد الثانى من فرنسا فى آخر سنة ١٨٣١ ، ولم يعرف له جهد فى الترجمة بعد عودته ، ولعله ألحق طبيباً بإحدى فرق الجيش .

١ ــ الدكتور على هيبة [٣] : عاد من فرنسا فى ديسمبر سنة ١٨٣٣ (شعبان ١٢٤٩) ، فعين مدرساً

---

(١) وثائق عابدين ، دفتر ١١٨ (مدارس عربى) ص ٧٤١ ، رقم ٥٣ الى شورى الأطباء ، فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦٤ .

(٢) يقول عمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ٤٤ ، هامش ١ ، لعله هو الدكتور محمد دانع الذى نوه به الدكتور «كلوت بك» فى كتابه «نظرة عامة حول مصر» وفاخر بتخرجه من مدارس فرنسا» .

(٣) ذكر الدكتور عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ أن الدكتور على هيبه كان عضوا فى بعثة ١٨٣٢ ، وانه =

بمدرستى الطب والولادة ، فلما نقلت مدرســـة الولادة إلى الأزبكية ، وبعدت عن مدرسة الطب ، عهد للدكتور هيه بالإشراف عليها مع قيامه بالتدريس للفرقة الثانية ، وقد قام منذ عاد من فرنسا بترجمة كتب طبية ثلاث ، اثنان فى علم الفسيولوجيا ، والثالث فى علم الولادة ، وهما المادتان اللتان تخصص لدراستهما فى باريس ، وفيما يلى أسماء هذه الكتب .

(ا) فسيولوجيا [١] ٢ — ترجمه عن الفرنسية إلى العربية ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥١ (أى بعد عودته بسنتين) .

(ب) إسعاف المرضى فى علم منافع الأعضا ، تأليف «الخواجه سوسون معلم الفسيولوجيا بأبى زعبل» وترجمه من الفرنساوية للعربية على أفندى هيبه الحكيم بمدرسة أبى زعبل ، الذى بلغ رتبة الحكيم من مدرسة الطب بباريس ، وكان يمليه على الشيخ محمد محرم أحد المصححين بمدرسة أبى زعبل [٢] ، وقد قام بتحريره الشيخ محمد الهراوى ، وتم طبعه فى بولاق فى الرابع عشر من المحرم سنة ١٢٥٢ ، وذكر فى خاتمته أنه «سادس كتاب طبع من كتب الطب المترجمة» [٣] .

(ج) طالع السعادة والاقبال فى علم الولادة وأمراض النساء والأطفال ، ترجمه عن الفرنسية ، وقام على تصحيحه زميله الدكتور أحمد حسن الرشيدى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٨ .

وبينما كانت بعثة سنة ١٨٢٦ تتلقى العلم فى فرنسا . كانت مدرسة الطب قد أنشئت فى سنة ١٨٢٧ ، وكان «كلوت بك» يبذل الجهد كل الجهد ليوفر لها أسباب النجاح وليعمل على تصير التدريس بها . فلما مضى على إنشائها خمس سنوات تخرجت الدفعة الأولى (فى سنة ١٨٣٢) . فتخير كلوت بك اثنى عشر طالبا من أمهر خريجيها ، وبعثهم إلى فرنسا لإتمام دراستهم ، فلما عادوا إلى مصر ، ألحقوا مدرسين بمدرسة الطب . وقد كان لأكثرهم جهد مشكور فى الترجمة عن الفرنسية .

٢ — الدكتور إبراهيم النبراوى : أصله من قرية نبروه بمديرية الغربية ، تعلم الخط والكتابة والقراءة فى مكتب القريه ، ثم تعلق بالبيع والشراء كما يقول على باشا مبارك فأرســـله أهله مرة «إلى المحروسة ليبيع بطيخاً ، فلم تربح تجارته ، بل لم يحصل رأس المال فخاف من أهله ولم يرجع اليهم ، ودخل

= عاد الى مصر فى سنة ١٨٣٧ ، وهـذا خطأ واضح ، اذ أنه من الثابت قطعا أن هيبة كان عضوا فى بعثة سنة ١٨٢٦ ، ذكر ذلك المسيو «جومار» فى تقريره عن هذه البعثة ، ونقله عنه عمر طوسون ، ويؤكد هذه الحقيقة أن الكتابين الأول والثانى ترجما وطبعا فى بولاق سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) وسنة ١٢٥٢ (١٨٣٦) ، فكيف يحدث هذا إذا كان هيبة لم يعد من فرنسا الا سنة ١٨٣٧ ؟

(١) هكذا ذكره سركيس فى معجمه «عامود ١٧٠» ولم أجد اسم هذا الكتاب فى قائمتى «رينو» و «بيانكى» .

(٢) انظر اسعاف المرضى «ص ٨» وقد قام بمراجعة الترجمة على نص ايطالى عنجورى والشيخ الدسوقى .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

الأزهر ، [١] ثم اختير مع غيره من طلاب هذا الجامع ليكونوا الفرقة الأولى بمدرسة الطب عند إنشائها ، وامتاز فيها على أقرانه فانتخب عضواً فى بعثة ١٨٣٢ ، ولما عاد إلى مصر عين مدرساً بمدرسة الطب ، «ولنجابته وحسن درايته فى فنه ، اختاره العزيز محمد على باشا حكيمباشى لنفسه ، وقربه ، وتخصص به ، وبلغ رتبة أمير الاى ، وكثرت عليه إغداقات العزيز وانتشر ذكره ، وطلبته (الفاميليات) والأمراء ولم يزل مع العزيز وسافر معه إلى البلاد الأورباوية سنة ثلاث وستين» [٢] ، وكان قد تزوج وهو فى البعثة من فرنسية عادت معه إلى مصر وظلت بها حتى توفيت فتزوج من بدوية أنعمت عليه بها والدة عباس باشا الأول .

وفى سنة ١٨٤٦ (١٢٦١) ، أو بعدها بقليل عند ما استقال الدكتور « برون » مدير مدرسة الطب ، وعاد إلى فرنسا ، تولى وكالتها [٣] الدكتور النبراوى ، وعهد اليه بالاشراف عليها ، وهو أول مصرى يلى هذا المنصب ، ثم خلفه بعد قليل زميل له وعضو آخر من أعضاء بعثة ١٨٢٦ وهو الدكتور محمد الشافعى وقد احتفظ النبراوى بمكانته العلمية الممتازة بعد عصر محمد على ، فاختاره عباس باشا بعد توليته حكيمباشى له ثم اختارته والدته للسفر معها إلى الحج .

وقد قام النبراوى بترجمة الكتب الآتية :

١ — نبذة فى الفلسفة الطبيعية
نبذة فى التشريح العام
نبذة فى التشريح المرضى

} وكلها من تأليف كلوت بك ، وقد طبعت فى مجلد واحد فى بولاق سنة ١٢٥٣ .

وقد ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون أن النبراوى قام بترجمة هذه النبذ وهو فى فرنسا ، وحجته فى ذلك (وهو هنا يأخذ عن على مبارك ، الخطط ، ج ١١ ، ص ٨٥) أن أعضاء هذه البعثة كان عليهم بعد أن أتموا دراستهم أن يضعوا رسائل فيما درسوا ، ولكنهم ندبوا للعودة إلى مصر خطأ ، فعادوا إليها فى مارس سنة ١٨٣٦ [٤] (ذو الحجة ١٢٥١ والمحرم ١٢٥٢) ، فأمر محمد على باشا بإرجاعهم إلى فرنسا لتقديم هذه الرسائل ، والحصول على أجازاتهم ، فسافروا إليها ثانية فى سبتمبر ١٨٣٦ (جمادأول وثانى ١٢٥٢) ، وأنهم عادوا إلى مصر بعد ذلك فى سنة ١٨٣٨ (١٢٥٤) ، ولكن كيف يتسنى للطالب الذى يعود إلى فرنسا ليتفرغ لإعداد رسالته أن يترجم كتابين يطبعان فى بولاق فى نفس المدة التى قضاها فى فرنسا ؟

عندى أن ما ذكره الأمير غير صحيح بدليل أن الدكتور عزت عبد الكريم [٥] نقض فى كتابه هذه الحجة السابقة معتمدا على بعض وثائق عابدين ، وذكر أن ما ذهب إليه على مبارك باشا ، والأمير عمر

(١و٢) على مبارك ، الخطط ، ج ١٧ ، ص ٤ ، وانظر أيضا عمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .
(٣) انظر عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ و ٤٤٣ .
(٤) على مبارك ، الخطط ، ج ١١ ، ص ٨٥ ، وعمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧١ — ٢٧٣ و ٤٤٢ .

طوسون من ندب هؤلاء الأعضاء خطأ ، ثم اعادتهم لاتمام رسائلهم أمر غير حقيق ، وأثبت أن خمسة من أعضاء هذه البعثة عادوا إلى مصر فى سنة ١٨٣٦ (١٢٥٢) . ثم عاد البافون بعدهم بسنتين (فى ١٢٥٤ — ١٨٣٨) ، وبهذا الرأى يستقيم الوضع فيكون النبراوى واحدا من الخمسة الذين عادوا إلى مصر فى سنة ١٨٣٦ ، ويكون قد ترجم نبذ كلوت بك بعيد عودته مباشرة ، فلما انتهت طبعت فى بولاق فى ٧ رجب سنة ١٢٥٣ (٧ أكتوبر ١٨٣٧) ، ويؤكد ما نذهب إليه من أنه عاد إلى مصر سنة ١٨٣٦ ، وأنه ترجم هذا الكتاب فى مصر لا فى فرنسا ، ما جاء فى خاتمة الكتاب نفسه ، ص ٧٦ : « هذا آخر ما جمعه أمير اللوا كلوت بك . . . وقد ترجمه من الفرنساوية إلى العربية ابراهيم افندى النبراوى حكيم أول ابن عرب بأملائه للشيخ محمد محرم أحد المصححين . . الخ .

وفى السنة التالية أى فى سنة ١٢٥٤ ترجم النبراوى الكتاب الآتى عن الفرنسية :

ب — الأربطة الجراحية وطبع فى بولاق .

٣ — الدكتور أحمد حسن الرشيدى :

كان واحدا من مشايخ الأزهر الذين عينوا مصححين ومحررين للكتب التى تترجم بمدرسة الطب البشرى ، وقد اشترك مع المصحح الأول الشيخ محمد الهراوى فى مراجعة وتصحيح أول كتاب ترجم فى المدرسة وهو « القول الصريح فى علم التشريح » من تأليف « كلوت بك » وترجمة عنحورى ، وطبع فى سنة ١٢٤٨ ، وقد ذكرنا عند كلامنا عن مدرسة الطب أن « كلوت بك » رأى — فيما رأى — للتغلب على على صعوبة اللغة أن يلزم بعض المترجين والمصححين أن يحضروا دروس الطب بالمدرسة ليلموا بمبادئه ومصطلحاته ، ويبدو أن السيد أحمد الرشيدى ، وزميلا له من المصححين يحمل اسمه دون أن تكون بينهما قرابة هو الشيخ حسين غانم الرشيدى كانا ممن حضروا الدروس ، وأفادوا منها ، فلما فكر كلوت بك فى إيفاد بعثة سنة ١٨٣٢ الطبية إلى باريس اختار هذين الشيخين [1] ليكونا عضوين بها .

وعاد هذان الشيخان من بعثتهما سنة ١٨٣٨ ، فألحقا مدرسين بمدرسة الطب ، وكانت لهما جهود محمودة فى التدريس والترجمة ، وقد كان لعلم السيد احمد الواسع باللغة العربية ، واتقانه لها مذ كان طالباً بالأزهر فضل كبير فى أن خرجت ترجماته أقرب ما تكون إلى الصحة ، بل إنا لنلاحظ أن كتبه — دون كتب

(١) ذكر عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٨ أن المصححين اللذين أرسلا فى بعثة ١٨٣٢ هما الشيخان محمد الهراوى وأحمد الرشيدى ، والصحيح ما ذكرناه ، فقد ذكر فى الوقائع المصرية ، العدد ٤١٢ ، ٧ ربيع الأول ١٢٤٨ ، ان مجلس الجهادية قرر فى ٢٦ صفر « انتخاب اثنين مصححين بمعرفة الشيخ الهراوى رئيس مصححى مدرسة الطب البشرى . . بدلا من كل من الشيخ أحمد الرشيدى ، والشيخ السيد حسين غانم من مصلحى الترجمة بالمدرسة المذكورة نظرا لسفرهما الى أوربا صحبة كلوت بك » راجع أيضا عمر طوسون ، المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٣٠ ، ومما يدل على تفوق السيد أحمد الرشيدى على أقرانه من المصححين أن لجنة الامتحان بمدرسة الطب اقترحت فى ١٨٣٠ قبيل سفره رفع مرتبه مكافأة له ، انظر عبد الكريم ، ص ٢٨٩ هامش ١ .

زملائه — كانت تقدم للطبعة من غير أن تمر على أحد من المصححين ، كما نلاحظ أنه كان يقوم أحياناً بمراجعة بعض الكتب التي يترجمها زملاؤه ، وحوالى سنة ١٨٤٠ عهد إليه بادارة مدرسة الولادة [١] بعد أن تولاها من زملائه الدكتوران على هيبة ، وعيسوى النحراوى .

وقد قام السيد أحمد حسن الرشيدى فى مدى عشر سنوات تقريباً (١٢٥٢ — ١٢٦٢) بترجمة سبعة كتب فى مختلف الفنون الطبية ، عدا كتاب واحد فى علم الجغرافيا .

(ا) رسالة فى تطعيم الجدرى تأليف « كلوت بك » . طبع فى بولاق سنه ١٢٥٠ ، ثم طبع ثانية فى سنة ١٢٥٢ ، وذكر سركيس فى معجمه أن الدكتور أحمد الرشيدى ترجم كتاباً لكلوت بك عنوانه « نبذه لطيفة فى تطعيم الجدرى » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٩ ، وإنى لأرجح أن تكون هذه طبعة ثالثة لنفس الكتاب ، ويجدر بى أن أشير هنا إلى أن هذا الكتاب طبع لأول مرة سنة ١٢٥٠ ، ومترجمه مقيم فى باريس ولا تفسير لهذا إلا أن نرجع إلى ما ذكرته فى مقدمة هذا الفصل من أن محمد على كان يلاحق تلاميذ البعثات وهم فى الخارج بالأوامر أن يترجموا — أثناء دراستهم — كتباً فيما يتخصصون فيه ، لهذا أرجح أن يكون الرشيدى قد ترجم هذا الكتاب وهو فى باريس ثم أرسله فطبع فى بولاق سنة ١٢٥٠ ثم فى ١٢٥٢ قبل عودته .

(ب) الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية ، تأليف « فليكس لامروس » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٤ ، وهو أول كتاب ترجمه بعد عودته من البعثة .

(ج) ضياء النيرين فى مـــداواة العينين ، تأليف الطبيب الانجليزى « لورنس » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٦ ، وهو ثانى كتاب ترجمه بعد عودته ، وتدل مقدمة هذا الكتاب على أن السيد أحمد الرشيدى كان وافر النشاط ، محبا لعمله مقبلا عليه ، يأبى البطالة ، ويعاف الكسل ، فقد قال فى ص٢ : « وبهمة سعادته (يقصد محمد على) سافرت وارتحلت وحصلت من بلوغ الأمانى ما حصلت ، ثم رجعت إلى وطنى سالما مجبور الخاطر ، آمناً غانما وما زلت إلى الآن مقيما بتلك المدرسة (مدرسة الطب) التى هى ينبوع مكارمنا ، ومحط آمالنا ، وكنز ادخار مغانمنا ، معداً للتدريس وترجمة المؤلفات ، مقيداً لعيادة المرضى والمعالجات ، فكان آخر ما ترجمته قبل هذا الكتاب كتاب الدراسة الأولية فى علم الجغرافيا الطبيعية ، ولما كمل إتمامه : مكثت برهة مضطرب الظنون ، حتى أظهر الله ما فى غيبه المكنون فبرز فى الأمر وظهر ، بترجمة كتاب يقر به النظر .. كتاب لهجت بمدحه الألسن للطبيب الجراح الانجليزى لورنس فى أمراض العين .. وقد أضاف إليه نبذة من كتاب الحكيم « ولير » النمساوى فى كيفية تحضير أدوية العين ، واستعمالها فى التداوى ، ثم زاد عليه جملة مستحضرات ما يستعمل فى مصر ، ومركبات من نحو اكحال ومراهم وبرودات وقطورات .. الخ

(د) بهجة الرؤساء فى أمراض النساء ، طبع فى بولاق سنة ١٢٦٠ .

(هـ) نزهة الإقبال فى مداواة الأطفال ، طبع فى بولاق سنة ١٢٦١ .

---

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(و) الروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية (فى جزئين) طبع فى بولاق سنة ١٢٦٢ — ١٢٦٣ .
(ز) نخبة الأمائل فى علاج تشوهات المفاصل ، طبع مع الكتاب السابق كملحق له .

وفى عهد عباس الأول وسعيد هدأت الحركة العلمية، وهدأ معها قلم السيد أحمد الرشيدى، يقول جورجى زيدان: «وكان قد وشى به بعض مبغضيه ، واتهموه بأمور أوجبت ابتعاده عن الخدمة، فلما صارت الخديوية إلى اسماعيل فى سنة ١٨٦٣ (١٢٨٠) اتجهت الأنظار إلى استخدامه ، فتوسط محبوه لدى الخديوى وأبانوا له اقتداره على خدمة الطب، فقدمه، وأوعز له أن يشتغل فألف كتاب عمدة المحتاج لعلى الأدوية والعلاج» [١]

وهذا الكتاب موسوعة علمية كبيرة تقع فى أربعة أجزاء كبار ، وقد طبع فى سنة ١٢٨٣ بعد وفاته بسنة واحدة ، وقد ألحق به فهرس توضيحى الدكتور حسين عوده .

٤ — الدكتور حسين غانم الرشيدى : أما صديقه وزميله الدكتور حسين غانم الرشيدى فقد عين بعد عودته معلما للأقرباذين والمادة الطبية، غير أنه كان محدود النشاط فى الترجمة، فلم يترجم إلا كتابين وهما:

(ا) الدر الثمين فى الأقرباذين ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٥ .

(ب) الدر اللامع فى النبات وما فيه من الخواص والمنافع ، تأليف الدكتور « فيجرى بك » وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ ، وقد راجعه وحرره الشيخ محمد عمر التونسى .

غير أن السيد حسين غانم كان كزميله حجة فى اللغتين العربية ، ولهذا كان يشترك فى تصحيح بعض الكتب المترجمة ، حتى بعد عودته ، كما فعل فى مراجعة أجزاء من كتاب « الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية » [٢] بالاشتراك مع الشيخ التونسى .

٥ — الدكتور عيسوى النحراوى : كان من طلبة الأزهر ، ثم دخل مدرسة الطب فى أول سنة أنشئت فيها ، واختير عضواً فى بعثة سنة ١٨٣٢ ، وعاد إلى مصر فى سنة ١٨٣٨ ، وترجم بعد عودته كتاباً فى التشريح عنوانه :

« التشريح العام » ، تأليف المسيو « لكلار » الطبيب الفرنسى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥١ ، وذكر الأمير عمر طوسون فى كتابه عن البعثات أنه ترجم هذا الكتاب وهو طالب فى فرنسا .

وقد قام النحراوى أيضاً بترجمة الجزء الخاص بالتشريح العام من القاموس الطبى الفرنسى الذى اشترك الأطباء المصريون فى ترجمته ، واختار له الشيخ محمد عمر التونسى عنوان «الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية» .

٦ — الدكتور محمد الشباسى : كان من تلاميذ الأزهر ، ثم التحق بمدرسة الطب فى سنة ١٨٢٧ ،

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ١٦٥ .
(٢) انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ، ص ٤٣٨ .

وسافر إلى باريس فى بعثة سنة ١٨٣٢ ، وعاد منها فى سنة ١٨٣٨ فعين مدرساً [١] لعلم التشريح الخاص بمدرسة الطب، وكان كزميله النحراوى مقلا فى الترجمة ، فلم يترجم إلا الكتابين الآتيين :

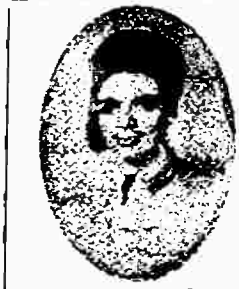
الدكتور محمد الشافعى

(أ) التنوير فى قواعد التحضير ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٤ .

(ب) التنقيح الوجيز فى التشريح الخاص الجديد ، تأليف مسيو «كروليه» ويقع فى ٣ أجزاء كبيرة تتكون من ١٣٢٠ صفحة، بدىء فى طبعه فى أواخر عهد محمد على وكلف بمراجعته الشيخ سالم عوض القنياقى ، فقام بتصحيح الجزء الأول ثم «عاقه الرمد» [٢] عن مراجعة بقية الكتاب ، فقام بتصحيحه الشيخ محمد عمر التونسى ، وتم طبعه فى جمادى الآخرة [٣] سنة ١٢٦٦ أى فى أوائل عهد عباس الأول ، وقد ذكر المترجم فى مقدمة الكتاب أنه ترجمه ليكون مرجعاً وافياً فى فن التشريح يستعين به تلاميذ مدرسة الطب ، قال : « لما وكل إلى تعليم فن التشريح فى مدرسة الطب الانسانى ولم يكن بها كتاب جامع لماله المشرح يعانى ، وكانت معارف التلامذة قاصرة عن كتاب الماهر «بيل» [٤] وهو فى غاية الاختصار ، ومطبوع من زمن طويل فأردت أن أترجم لهم كتاباً جامعاً لمسائله المهمة ، كاشفاً عمن يقرؤه الجهالة والغمة ، فاخترت كتاب الماهر «كروليه» المشهور، لما أنه بين كتب التشريح بالحسن مذكور ، فعرضت على سعادة «كلوت بك» ما خطر ببالى، فاستحسنه ولم يبالى، (كذا) فامتثلت وشرعت فى نقله وترجمته [٥].

وقد اشترك الشباسى — كبقية زملائه الأطباء المصريين — فى ترجمة القاموس الطبى السالف الذكر .

الدكتور محمد الشافعى

٧ — الدكتور محمد الشافعى : كان كزميليه السابقين تلميذا فى الأزهر ، ثم التحق بمدرسة الطب وسافر إلى باريس فى سنة ١٨٣٢ . ثم عاد سنة ١٨٣٨ ، فعين مدرسا للأمراض الباطنية ، وحوالى سنة ١٨٤٠ تولى إدارة مدرسة الولادة ، وفى سنة ١٨٤٥ عين وكيلا لمدرسة الطب [٦] ، وذلك بعد أن استقال مديرها الدكتور «برون» وعاد إلى فرنسا ، فكان أول رئيس مصرى تولى إدارة هذه المدرسة . وقد لبث يشغل هذا المنصب إلى أوائل عهد عباس الأول ، فلما اغلقت المدرسة اشتغل بالتطبيب والتأليف إلى أن أعيد فتحها فى عهد سعيد باشا . فعاد إليها ثم عين مديرا لها [٧] فى عهد الخديو اسماعيل ، إلى أن أدركته الوفاة حوالى سنة ١٨٧٧ وقد قام الشافعى فى عصر محمد على بترجمة ثلاثة كتب وهى :

(١) الشذور الذهبية ، ص (ج) ، وقد عمر الشباسى طويلا ، عاش حتى آخر عهد اسماعيل وتوفى فى سنة ١٨٩٤ ، ولقد بلغ التسعين من عمره . (٢و٥) انظر مقدمة الكتاب ، ص ٤ .

(٣) انظر خاتمة الكتاب . ج ٣ . ص ٤٠٠ . (٤) يقصد كتاب «أول المعرض فى علم التشريح» وهو أول كتاب ترجم وطبع من كتب الطب .

(٦) عزت عبد الكريم . المرجع السابق . ص ٢٧٤ .

(٧) انظر الدكتور أحمد عيسى بك . معجم الأطباء . ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(ا) أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض فى أربعة أجزاء كبيرة ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٩ .

(ب) كنوز الصحة ويواقيت المنحة . تأليف « كاوت بك » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٠ .

(ح) الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال . تأليف « كاوت بك » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٠ .

وقد أسهبنا الحديث عن هذين الكتابين عند كلامنا عن « كاوت بك » فى الفصل الخاص بالكتب والمؤلفين وذكرنا أنهما ترجما أيضاً عن العربية إلى التركية .

٨ — الدكتور محمد عبد الفتاح : أرسل إلى فرنسا لدراسة الطب البيطرى بمدينة « ألفور Alfort » غادر مصر فى الأيام الأخيرة من سنة ١٨٢٩ ، ووصل إلى فرنسا فى يناير سنة ١٩٣٠ ، وعاد منها فى أوائل سنة ١٨٣٦ ، فعين مدرساً ومترجماً بمدرسة الطب البيطرى ، وقد قام فى مدى عشر سنوات (١٢٥٢ — ١٢٦٢) بترجمة سبعة كتب كلها فى الطب البيطرى ، وهى :

(ا) تحفة القلم فى أمراض القدم ، طبع فى بولاق سنة ١٢٥٢ .

(ب) نزهة المحافل فى معرفة المفاصل ، تأليف « ريجو » ، قال الشيخ مصطفى حسن كساب فى مقدمته : « لما كان تشريح الطبيب الماهر المعلم « جيرار » ناقصاً بعض مسائل ، أراد الحاذق النجيب المعلم « ريجو » الذى هو تلميذ ابنه أن يكمله ، فألف هذا الكتاب . . . ثم ترجمه من اللغة الفرنساوية إلى اللغة العربية . . المؤمل من مولاه النجاح ، محمد افندى عبد الفتاح ، أحدث أبناء العرب الذين أرسلوا إلى بلاد أوربا لتعلمهم (كذا) ما يبلغون به أرفع الرتب . . الخ » ، وقد طبع هذا الكتاب فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

(ح) الطب العملى ، تأليف « واتيل » ، وقد قرأ هذا الكتاب لتلاميذ مدرسة الطب البيطرى « الخواجة لابتوت » أحد مدرسى هذه المدرسة ، ثم قام بترجمته محمد عبد الفتاح ، قال الشيخ كساب فى مقدمة الكتاب « ومن أهم ما ألف فى هذا الشأن (علم الجراحة البيطرية) كتاب الطبيب الشهير . . عديم المثيل المعلم « واتيل » وهو الذى قرأه للتلامذة فى المدرسة البيطرية المستجدة بأرض شبرا الخيمة ، البيطرى الماهر . . « الخواجه لابتوت » ، وقد طبع هذا الكتاب فى بولاق سنة ١٢٥٩ .

و — البهجة السنية فى أعمار الحيوانات الأهلية ، تأليف « جيرار » ، تمت ترجمته فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ١٢٦٠ وتم طبعه فى بولاق فى أوائل رجب من نفس السنة .

(ه) مشكاة اللائذين فى علم الاقرباذين » ، تأليف « لابتوت » ، طبع فى بولاق سنة ١٢٦٢ .

(و) قانون الصحة البيطرية : تأليف « لويس جروتيبه » ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٢ .

(ز) المنحة لطالب قانون الصحة ، تأليف « لويس جروتيبه » طبع فى بولاق سنة ١٢٦٢ .

وإنى لأرجح أن يكون هذان الكتابان كتاباً واحداً لتشابه العنوانين ، ولنسبتهما إلى مؤلف واحد ، ولأنهما طبعا فى سنة واحدة .

ج ــ مترجمو العلوم الرياضية

محمد بيومى ، ترجمة موجزة له ، تعيينه مدرسا بمدرسة المهندسين بالعاطر الخيرية ، ثم بمدرسة المهندسخانة ، اشتراكه فى لجنة تنظيم المدارس ، وتنظيم دروس الرياضيات بمدرسة الطبية ، اختياره معاونا بديوان المدارس، تلاميذه ومعاونوه ، ابراهيم رمضان ، أحمد دقله ، أحمد فايد ، أحمد طايل ، جهودهم فى الترجمة لمدرسة المهندسخانة ، تعيين بيومى رئيسا لأحد أقسام قلم الترجمة ، سفره مع أحمد طايل إلى السودان ، وفاته هناك ، تقرير « بورنج » عن الكتب التى ترجمت بالمهندسخانة ، الكتب التى ترجمها بيومى وزملاؤه

قام بترجمة كثير من كتب الرياضيات مدرسة من خريجى المدارس والبعثات ، كان أستاذها الأكبر نابغة مصر محمد بيومى افندى ، وكان تلاميذه ومساعدوه : ابراهيم رمضان ، وأحمد دقله ، وأحمد طايل ، وأحمد فايد .

ويعنينا هنا أن نتحدث عن نابغة هذه المدرسة وأستاذها محمد بيومى : أصله من بلدة دهشور ، وإن كان قد ولد فى القاهرة ، أرسل إلى فرنسا فى بعثة سنة ١٨٢٦ . وله من العمر سبعة عشر عاماً ، ولبث فى فرنسا تسع سنوات تخصص فى خلالها فى فن قوى المياة [١] « الهيدروليكا Hydraulique » ثم عاد إلى مصر فى ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٠ [٢] (١٣ أبريل ١٨٣٥) ، فعهد إليه فى الحال بالبدء فى ترجمة كتاب فى الهندسة الوصفية [٣] ، وفى نفس التاريخ صدر أمر محمد على باشا بتعيينه « مدرساً بمدرسة المهندسخانة بالقناطر الخيرية » مع تفهيمه القيام بمعاونة باشمهندس القناطر بالنسبة لتعلمه أشغال القناطر كما يجب بباريس [٤] .

وفى شوال سنة ١٢٥١ (يناير سنة ١٨٣٦ [٥]) ضمت مدرسة المهندسين بالقناطر إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ونقل بذلك بيومى افندى أستاذاً بهذه المدرسة الأخيرة .

وفى نفس السنة ألفت لجنة لإعادة تنظيم المدارس فكان بيومى افندى واحدا من أعضائها [٦] . وقد عنيت

---

(١) عمر طوسون ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٢و٤) سامى باشا ، تقويم النيل ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ و ٥٨٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣٤ ، « أمر من محمد على إلى ناظر المهمات بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٠ »

(٥) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٦) المرجع السابق ص ٩٣ — ٩٤ ، أما بقية الأعضاء فهم : مختار بك رئيس وكلوت بك وكانى بك وأرتين بك واسمعان افندى ومسيو فارن Varin مدير مدرسة الفرسان وحكيكيان افندى والشيخ رفاعة ومسيو هامون Hamont ناظر الطب البيطرى ومسيو لامبير lambert ناظر المهندسخانة ، وكان سكرتير اللجنة المسيو دوزول Dozol .

هذه اللجنة عناية خاصة بمدرسة المهندسخانة ببولاق فوضعت للدراسة بها نظاما يتفق ونظام مدرسة الهندسة بباريس ، وفى أوائل تلك السنة (١٨٢٦) كان قد عاد من فرنسا إبراهيم افندى رمضان وأحمد افندى دقلة وأحمد افندى طائل وأحمد افندى فائد قبل أن يتموا دراستهم ، وكانوا قد أوفدوا إليها جميعا فى سنة ١٨٣٠ فألحق اثنان منهم وهم دقلة وطائل معيدين لدروس بيومى افندى فى المهندسخانة على أن يتما دراستهما عليه ، وألحق أحمد افندى فائد معيدا لدروس بهجت باشا بقصر العينى وابراهيم افندى رمضان معيدا لدروس مظهر باشا بمدرسة الطوبجية ، ولم يلبث هذان الأخيران أن نقلا إلى مدرسة بولاق وأصبح الجميع تلامذة ومعيدين لبيومى افندى ، يقول على مبارك باشا : « وكان (أى بيومى افندى) هو الباش خوجة عليهم فكان المرجع إليه والمعول عليه »[١] .

وفى سنة ١٨٣٦ أيضا عندما أعيد تنظيم مدرسة المدفعية بطره قام بتنظيم[٢] دروس الرياضيات بها بيومى افندى.

محمد بيومى أفندى
أستاذ الرياضيات بمدرسة المهندسخانة

وحوالى سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥) أوجد بديوان المدارس نظام المعاونين[٣] وهم بمثابة المفتشين الآن ، وكان عملهم الأساسى التفتيش على المدارس وشئونها المختلفة علمية وتربوية وصحية . . . الخ وكان يعهد إلى بعض هؤلاء المعاونين ومنهم بيومى افندى بترجمة الكتب وتصحيحها .

وقد قام بيومى افندى بهذه الأعمال جميعا خير قيام ولكنه بذل الجهد الأكبر مع تلاميذه ومساعديه الأربعة فى النهضة بمدرسة بولاق وتلاميذها وترجمة الكتب فى مختلف فروع العلوم الرياضية ، لاحظت هذا الجهد لجنة سنة ١٨٤١ لاعادة تنظيم التعليم ، فمدحته ، وضمنت هذا المدح تقريرها قالت : « لاريب فى أن المهندسخانة مدينة بكل تقدمها هذا إلى دقة ناظرها ، وهمة أساتذتها ، غير أن معظم الفضل انما يرجع إلى ترجمة المدرسين للدروس ، وإلى الاسراع فى طبع التراجم بمطبعة الحجر (الملحقة بالمدرسة) ، ثم جمعها فى كراسات وكتب ، ولقد كانت العلوم الرياضية التى كانت فى متناول اليد من القلة والندرة ، وكانت ترجمتها من الأشكال والصعوبة بحيث لم يتيسر قبل اليوم تنشئة المهندسين الفحول على الوجه الصحيح الموافق لأسلوب فرنسا ، ولكن ها هو البكباشى محمد بيومى افندى ، واليوزباشية أحمد طائل افندى ، وابراهيم رمضان افندى ، وأحمد دقلى افندى ، وأحمد فائد افندى يتولون بفضل بركات الخديوى ترجمة الدروس التى وكل إليهم تعليمها ، ثم لا يقفون عند حد الترجمة ، بل يطبعونها على الحجر ويطبعون منها كتبا[٤]

(١) على مبارك ، الخطط ، ج ١١ ، ص ٦٨ . (٢) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤١١ .

(٣) أنظر تفصيلات أكثر عن أعمال هؤلاء المعاونين وأسماء بعضهم ، المرجع السابق ص ١١٦ — ١١٧ .

(٤) قام بتصحيح الكتب التى ترجمت بمدرسة المهندسة ، وتهذيب عباراتها الشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقى . (أنظر صوراً لصفحات من هذه الكتب فيما يلى ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨) .

وأسفارا ، والواقع أن الامتحان الأخير كان مشهداً لما جمعته هذه الكتب بين دفاتها من شتى العلوم[١] .

ولما أنشىء قلم الترجمة (الملحق بمدرسة الألسن) فى سنة ١٨٤١ قسم إلى أقلام أربعة ، كان أولها القلم الخاص بترجمة الكتب الرياضية ، فكان بيومى افندى خير من يتولى رئاستها ، فنقل إليه وعين لمساعدته ملازم من خريجى الألسن ، وخمسة[٢] من تلاميذ فرقتها الأولى .

وقد كان بيومى افندى إلى هذا « حسن الأخلاق مهيبا جليلا ذا رأى حسن »[٣] ، وكان أستاذاً لجيل من المهندسين بأكمله ، تتلمذ عليه من كان يصغره سنا ، ولم يأنف أن يتتلمذ له من كان يكبره سنا أمثال « سلامة باشا ، ومحمود باشا الفلكى ، واسماعيل باشا محمد ، وعامر بك » وكلهم من نوابغ المصريين فى القرن التاسع عشر .

غير أن هذا النبوغ الفذ والخلق الطيب لم يلقيـــا من عباس الأول ما لقياه من محمد على من تكريم وتقدير ، ففى ١٢ رجب سنه ١٢٦٦ ، صدر الأمر بانشاء مدرسة الخرطوم الابتدائية وعين رفاعة بك لنظارتها ، واختير لتدريس الأرقام ، وطريقة كتابتها ، وعمليات الجمع والطرح والضرب، نابغة الرياضيات بيومى افندى ، وتلميذه وزميله أحمد طائل افندى ، وكانت الصدمة عنيفة فأثرت فى صحة بيومى افندى وتعاون عليه الحظ العاثر والمرض ، فأدركته المنية ودفن هناك[٤] .

وفى رمضان سنة ١٢٥٣[٥] (ديسمبر ١٨٣٧) زار مصر الدكتور « بورنج » ومكث بها شهوراً زار فى خلالها منشآت محمد على ، ومن بينها مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وقد ذكر فى تقريره أنه حتى سنة ١٨٣٨ لم يكن قد طبع من الكتب التى ترجمها أساتذة المدرسة إلا كتاب الهندسة الوصفية تأليف « دوشين : Duchesne » وترجمة محمد بيومى ، ولكنه أثبت بعد ذلك قائمة بالكتب التى تمت ترجمتها ولم تطبع ، أو لم تتم ترجمتها بعد وهى :

١ — كتاب الجبر تأليف « ماير Mayer » أكمل ترجمته بيومى ، ولم يطبع .
٢ — مبادىء اللغوريتمات ، أكمل ترجمته بيومى ولم يطبع .
٣ — كتاب الميكانيكا ، « تأليف تركم Terquem » جزء واحد ، يترجمه بيومى .
٤ — كتاب الطبيعة ، تأليف « بكليه : Peclet » ، فى جزئين يترجمه فايد .
٥ — مبادىء الطبوغرافية ، تأليف « تيرليه Thrillet » ، جزء واحد يترجمه رمضان .

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ ، إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧ (وثائق عابدين) .

(٢) كان من بينهم السيد افندى عمارة بن عبد العال مترجم كتاب « تهذيب العبارات فى فن أخذ المساحات » .

(٣) على مبارك ، المرجع السابق ، ج ١١ ، ص ٦٨ .

(٤) ذكر سامى باشا فى تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ ، هامش ١ أن حكومة فرنسا أرسلت فى سنة ١٨٥٠ (١٢٦٦) أحد أفراد بيومى افندى بمدرسة الهندسة التى كان بها فى فرنسا لزيارته فى شفاء ، وبعد زيارته طبع كتابا بعنوانه بيومى افندى فى سفاء ، ١٨٥٠ ؛ وقد بحثت كثيرا عن هذا الكتاب فلم أوفق للعثور عليه .

(٥) رستم ، بيان بوثائق الشام .. الخ ، المجلد الثالث ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ .

٦ — كتاب الهيدروليكا تأليف « دوبيسون d'Aubuisson » جزء واحد يترجمه دقله .

٧ — رسالة فى المنشآت ، تأليف « نافيه Navier » جزء واحد ، يترجمها دقله .

٨ — كتاب الكيمياء ، تأليف « دوماس : Dumas » وهذا الكتاب كبير يقع فى ست أجزاء ويترجم منتخبات منه فايد .

٩ — الجغرافيا الطبيعية ، تأليف « لاكروا La Croix » جزء واحد يترجمه دقله .

١٠ — الجغرافيا العامة تأليف « بوبيه : Boubée » جزء واحد يترجمه فايد .

١١ — قطع الصخور ، تأليف « دويو : Duillot » جزء واحد يترجمه بيومى .

١٢ — رسالة فى الحرارة ، تأليف « بيتيه : Pietet » جزء واحد . ؟

١٣ — رسالة فى الضوء ، تأليف « بيتيه : Pietet » فى جزء واحد . ؟

١٤ — رسالة فى التعدين ، تأليف برار: Berard » جزء واحد . ؟

١٥ — الفحم الحجرى ، تأليف دويو : Duillot » جزء واحد يترجمه بيومى .

١٦ — رسالة فى التركيب العددى تأليف « جريميه Gremilliet » جزء واحد يترجمه دقله .

١٧ — كتاب الكيمياء تأليف تينار Thénard

١٨ — كتاب الكيمياء تأليف « شابتال Chaptal » . ؟

١٩ — كتاب الكيمياء تأليف جراى Gray . ؟

٢٠ — جريدة المعارف العادية . ؟

٢١ — مبادىء المنتجات الكيمائية ؟

٢٢ — مبادىء التفحيم Manuel de Charpentier ؟

٢٣ — التعدين «للحديد» تأليف « كارستون » Carston. ؟

٢٤ — العلوم . تأليف تورنير Tourneur[1] ؟

هذه أربعة وعشرون كتاباً أثبتها « بورنج » فى تقريره ، وذكر أن بعضها ترجم وأن البعض الآخر تحت الترجمة ، غير أنه يبدو أن الكثير من هذه الكتب لم يطبع ، ولسنا نعرف ماذا كان مصيرها ، ولم أعثر فى فهارس الكتب المطبوعة إلا على ثمانية عشر كتاباً ترجمها أعلام هذه المدرسة، وطبع أولها وهو كتاب الهندسة الوصفية فى سنة ١٢٥٢ (١٨٣٨) ، وطبع آخرها سنة ١٢٦٩ أى فى عهد عباس الأول ؛ وفيما يلى بيانها :

---

(١) Bowring Op. Cit. p, 144.

كتاب الروضة الزهرية فى الهندسة الوصفيه

اشترك فى ترجمته ابراهيم رمضان ومنصور عزمى وصححه الشيخ ابراهيم الدسوقى

صفحة من المقدمة

١ — الهندسة الوصفية تأليف « دوشين » جزءان ، طبع الجزء الأول فى بولاق سنة ١٢٥٢ ، وطبع الثانى سنة ١٢٦٣ .

٢ — كتاب الجبر والمقابلة ، تأليف « مايو » . جزء واحد فى ٥٧١ صفحة ، طبع فى بولاق فى غرة جمادى الآخرة سنة ١٢٥٦ .

٣ — ميكانيقة (أى جر الأثقال) تأليف « تركم » ترجمه بيومى بالاشتراك مع أحمد طائل ، جزء واحد ، بولاق سنة ١٢٥٧ .

٤ — ثمرة الاكتساب فى علم الحساب ، ويبدو أن بيومى أفندى كان قد ترجم هذا الكتاب ترجمة سريعة ليستعين به فى تدريس هذه المادة . ثم طبع طبع حجر بمطبعة مدرسة المهندسخانة ، ولكنه عاد فراجعه وزاد عليه تنفيذاً لأمر أدهم بك مدير المدارس ، وطبع الكتاب بعد تنقيحه فى بولاق سنة ١٢٦٣ وهو جزء واحد فى ٤٠٠ صفحة ، جاء فى مقدمة الشيخ الدسوقى مايلى : « ومن أخر كتب هذا العلم (الحساب) المؤسسة ، كتاب عرب فى مدرسة الهندسة ، جليل القدر حسن الترتيب ، إلا أنه غير متقن التعريب ، طبع على الحجر فى هذه المدرسة على يد من أحسن قراءته حين درسه ، ولقد عم نفع هذا الكتاب فى المدارس ، لما احتوى عليه من النفائس ، ولما كان الكتاب المعرب المشار إليه مما يعتمد فى هذا الفن عليه ، أمر من يجيبه السعد بلبيك ، حضرة أمير اللواء أدهم بك ، مدير المدارس المصرية ، ومفتش المهمات الحربية . جناب المتوكل على ربه المعيد المبدى ، محمد الشهير ببيومى أفندى ، أن يبذل فى اتمامه الهمة وأن يضم إليه فوائد مهمة ، على يد مصححه راجى عفو الأوزار ، إبراهيم الدسوقى عبد الغفار » .

٥ — جامع الثمرات فى حساب المثلثات ، طبع فى بولاق سنة ١٢٦٤ .

(ب) الكتب التى ترجمها إبراهيم رمضان أفندى .

١ — ثيوديزيه Géodésie أى فن أعمال الخرط العظيمة ، تأليف « فرانكير Francoeur » طبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

٢ — القانون الرياضى فى تخطيط الأراضى ، طبع فى بولاق سنة ١٢٦٠ ، وقد راجع الترجمة على الأصل أبو السعود أفندى ، ثم راجعها ثانية بيومى أفندى ، وثالثة عند الطبع حسن الجبيلى أفندى ، وقام بتحريره وتصحيحه الشيخ ابراهيم الدسوقى[1] .

٣ — اللآلى البهية فى الهندسة الوصفية ، طبع منه الجزء الأول فقط فى ١٧٦ صفحة فى بولاق سنة ١٢٦١ وقد قام بمراجعة الترجمة بالاشتراك مع المترجم ، حسن أفندى الجبيلى ، ويقول الشيخ الدسوقى فى مقدمة الكتاب : « وقد تداولته أيدى التصحيح ونقحته غاية التنقيح ، فقابله على أصله الفرنساوى . . . حسن

(١) Dunne, Op. Cit. pP. 347 – 348.

أفندى المصحح الجليل، فأطلق عنان قلمه فيه وصححه ، وأمعن نظره فى ترجمته وأصلحه ، ثم وصل إلى يد إبراهيم الدسوقى عبد الغفار مهذب عباراته ومبانيه ، وحرر بعد السؤال معانيه ، وبذل فيه غاية المجهود ، ونظمه نظم اللالى فى العقود ، مع مقابله الثانى، ومترجمه الأول، ليكون بذلك أتقن وأكمل».

وإن هذه الدقة فى الترجمة ومراجعتها تذكرنا بنفس الدقة التى كانت تراعى عند ترجمة كثير من الكتب الطبية .

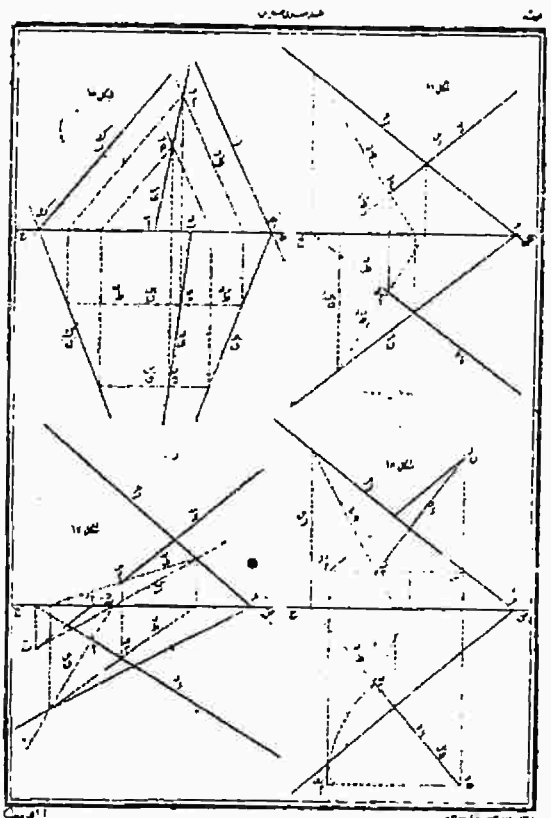

شكل من الأشكال الإيضاحية الملحقة بكتاب الهندسة الوصفية
[لاحظ فى أسفل الصفحة اسم الراسم — أمين صباغ — وتوقيع المدرس — ابراهيم رمضان]

٤ — الروضة الزهرية فى الهندسة الوصفية : وهو أجزاء ثلاثه ، ترجم الأول ابراهيم رمضان ، وترجم الثانى والثالث منصور عزمى[١] وطبعت كلها فى مجلد واحد ، طبع حجر، فى مطبعة مدرسة الهندسخانة[٢] سنة ١٢٦٨ .

٥ — المنحة الدنية فى الهندسة الوصفية : طبع حجـــر فى مطبعة المهندسخانة ، سنة ١٢٦٩[٣] .

(ح) الكتب التى ترجمهـــا أحمد دقلة افندى[٤] .

١ — مثلثات مستوية وكروية ، طبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

٢ — ايدروليك (أى علم حركة وموازنة المياه) طبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

---

(١) أنظر هذا الكتاب ص ١٠ و ١١٥ ، وعزى افندى هو أحد خريجى الألسن الذين عينوا لتدريس الفرنسية بالمهندسخانة وفى هذا الكتاب، وغيره من الكتب الرياضية ظاهرة لم نلاحظها فى الكتب الطبية المترجمة ، وهى تعاون اثنين أو ثلاثة فى تم كتاب واحد ، أنظر أيضا كتاب الميكانيكا الذى اشترك فى ترجمته بيومى وطابل .

(٢) كان ينسخ أصول الكتب التى طبعت على حجر بمطبعة المهندسخانة بخط جميل محمد افندى مذكور ، أنظر الكتاب السابق ص ١١٥ ، وكتاب الدر المنثور فى القال والمنظور . ترجمة صالح مجدى . ص ١٤١ . كذلك تحسل كل صفحة من صفحات هذه الكتب توقيعات المترجم والمصحح بخطوطهم فى أسفلها . مثل ابراهيم رمضان . وصالح مجدى . وابراهيم الدسوقى الخ .

(٣) الكتابان الأخيران طبعا فى عهد عباس الأول .

(٤) ترقى دقلة فى مدرسة الهندسة حتى أصبح وكيلها . وفى سنة ١٢٩٦ نقل الى قلم الهندسة وقد أبعد عن العمل فى عهد =

٣ — رضاب الغانيات فى حساب المثلثات ، طبع فى بولاق سنة ١٢٥٩ .

(ء) الكتب التى ترجمها أحمد طايل افندى[١] :

١ — تركيب آلات ، طبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

٢ — ميكانيقة (أى علم جر الأثقال) ترجمه بالاشتراك مع يومى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

(هـ) الكتب التى ترجمها أحمد فايد افندى[٢] (باشا فيما بعد) .

١ — الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية[٣] تأليف «بوبيه» أمر بجلب هذا الكتاب أدهم بك ، وأشار بترجمته المسيو «لامبير» ناظر المهندسخانة ، وراجع الترجمة مصطفى افندى بهجت[٤] ورفاعة افندى وقام بتصحيحه الشيخ الدسوقى ، وهو جزء واحد فى ١٣٤ صفحة ، وقد أضاف إليه المترجم « نبذة تشتمل على بيان ألفاظ هذا الفن الاصطلاحية ، فى نحو ٢٨ صفحة مرتبة ترتيبا أبجديا ، وطبع الكتاب فى بولاق فى أوائل ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ .

٢ — مختصر علم الميكانيكا : قام بتصحيحه السيد صالح مجدى ، وطبع الجزء الأول منه طبع حجر فى ٩٤ صفحة من القطع المتوسط فى مطبعة المهندسخانة فى سنة ١٢٦٠ .

٣ — تحرك السوائل ، تأليف « بيلانجيه » أحضره « لامبير بك » واستعان به أحمد فايد فى تدريس علم الهيدروليكا ، ثم ترجمه ، وراجع الترجمة السيد صالح مجدى ، وصححه الشيخ الدسوقى ، وهو جزء واحد فى ٢٣٠ صفحة ، طبع فى بولاق سنة ١٢٦٤ ، ويبدو من مقدمة الكتاب أن هذه هى الطبعة الثانية وأنه طبع طبعة أولى على حجر فى مطبعة المهندسخانة ، فقد قال فايد فى ص ٣ : « وكنت لدى الترجمة بالاثر مثلته طبعا على الحجر ، مقابلا عربيته الشاب الناجح ، السيد افندى صالح ، ولما انتفع به كثير من التلامذة ، بل ومن الاساتذة الجهابذة ، أردت أن يكون بالمطبعة الكبرى طبعه ، ليعظم وقعه ونفعه » .

٤ — الدرة السنية فى الحسابات الهندسية ، طبع حجر فى مطبعة المهندسخانة ، سنة ١٢٦٩ .

= عباس الأول فلزم بيته الى أن مات فى ١٢٧٣ . يقول على مبارك فى الخاط . ج ٩ . ص ٦٠ « وأكثر المهندسين الموجودين الآن تلقوا عنه .. وكان حسن الالقاء يجتهد فى التعليم . ويحث على الفهم . وكان من أعظم المهندسين . غير أنه كان يميل الى الشرب

(١) كان يدرس على الميكانيكا والجبر حتى سنة ١٢٥٨ . حيث عين مهندسا لركاب العالى ، وفى هذه الوظيفة اتهم بالرشوة لصرف التفاتة قبل استيفاء العمل . فنزل وحكم عليه بالسجن فالحق بليمان الترسانة بالأسكندرية . وعفى عنه بعد سنة ونصف سنة وعين مساعدا بديوان المدارس . وفى سنة ١٢٦٦ أرسل مدرسا بمدرسة المرطوم الابتدائية . وفى أول عهد سعيد باشا عاد الى مصر مريضا بالحمى . وتوفى فى بولاق بعد وصوله بيومين يقول عنه على مبارك المرجع السابق . ج ٩ ص ٧٨ : « وكان قصير القامة صغير الجسم ، كبير الهمم ، لايبالى بأكثر الأمور وله جرأة على الأمراء والعظام ، وكان محبا للتلامذة ، يرغب فى تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم » .

(٢) كان مدرسا للطبيعة والكيمياء فى المهندسخانة ، وارتقى حتى أصبح وكيلا لها ، ثم عين مهندسا للسكة الحديدية ، وتقدم فى هذه الصلحة حتى صار ياتهندس عموم السكك الحديدية المصرية ، واليه يرجع الفضل فى انشاء معظم خطوطها ، وباسمه سميت محطة فايد احدى محطات خط السويس القديم ، وتقدم فى أواخر أيامه على رتبة « باشا » وتوفى سنة ١٨٨٢ ، أنظر عمر طوسون المرجع السابق ص ٦٢ .

(٣) ذكر سركيس فى معجمه أن أحمد فايد ترجم كتابا اسمه « الجيولوجيا » طبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ ، وانى أرجح أن يكون هو نفس الكتاب التى ذكرته لاتفاقهما فى الموضوع وسنة الطبع ، ومكانه . (٤) أنظر هذا الكتاب ، ص ٣ .

ترجمه صالح مجدى ، وطبع بمطبعة مدرسه المهندسخانة

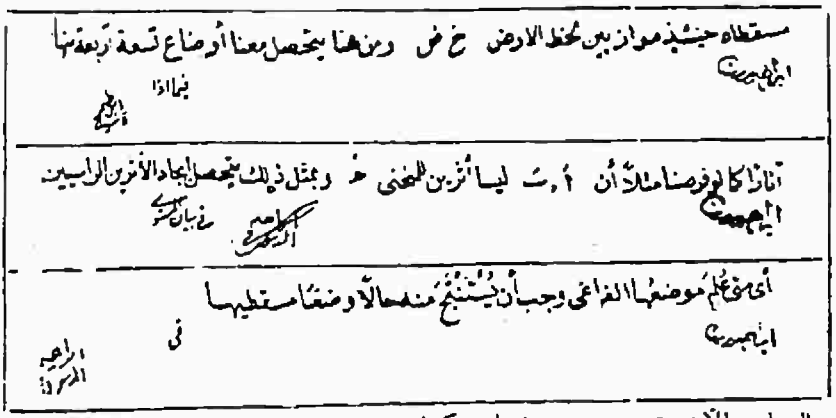

السطور الأخيرة من بعض صفحات كتاب الروضة الزهرية فى الهندسه الوصفيه

(والى اليمين دائما ترقيم ابراهيم رمضان والى اليسار ترقيم ابراهيم الدسوقى فى أشكال متنانة)

رفاعه الطهطاوى
زعيم النهضة الفكرية فى عصر محمد على

(د) رفاعة رافع الطهطاوى

زعيم حركة الترجمة ، والمبعوث الأوحد للتخصص فى هذا الفن

تلقاته الأولى ، تدريسه فى الأزهر ، تتلمذه على الشيخ العطار ، تأثير الأستاذ فى التلميذ ، سفره أماما لبعثة ١٨٢٦ ، حياته الدراسية فى باريس ، الكتب التى قرأها ، جهوده فى الترجمة أثناء التحصيل ، نجاحه فى الامتحان بعد سنة ، اتصاله بالمستشرقين : « جومار » و « دى ساسى » و « دى برسيفال » ، الامتحان الأخير ، تفوقه فيه ، رأى لجنة الامتحان فى قدرته على الترجمة ، عودته لمصر ، مقابلته لابراهيم ومحمد على ، تعيينه مترجما لمدرسة الطب جهوده فيها ، نقله مترجما بمدرسة الطوبجية ، جهوده فيها ، مدرسة التاريخ والجغرافيا ، طبع ثلاثة من كتبه المترجمة بعد عودته من ١٢٤٦ — ١٢٤٩ . ترجمة الجزء الأول من جغرافية ملطبرون ، اهتمام محمد على بالدراسات الجغرافية ، رفاعة وانشاء مدرسة الألسن ، اشتراكه فى مراجعة كتب مترجمة فى مختلف الفنون ، تولية تنظيم الوقائع المصرية ، ولاية عباس باشا العرش ، الآراء فى عباس ، نفى رفاعة إلى الخرطوم ، الأسباب ، رفاعة يترجم « تليماك » فى السودان ، هل ترجم شيئا لموتسكيو ؟

بدأنا الحديث عن المترجمين من خريجى المدارس والبعثات بطليعتهم ورائدهم الأول عثمان نور الدين، وجدير بنا أن نختم هذا الحديث بالكلام عن المبعوث الأوحد للتخصص فى الترجمة رفاعة رافع الطهطاوى.

ولد فى طهطا سنة ١٢١٦ (١٨٠١ — ١٨٠٢) ، وإليها ينسب، وفيها تلقى علومه الأولى، وفى سنة ١٢٣٢ (١٨١٧) وفد على القاهرة ، والتحق بالأزهر ، ومكث به نحو خمس سنوات أتم فيها دروسه ، فلما أتم الحادية والعشرين من عمره أصبح أهلا للتدريس ، فدرس فى الأزهر : وكان يتردد أحيانا على مدينته طهطا فيلقى على أهليها بعض دروسه ، وقد كان رفاعة منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً ، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه . وكانت حلقات دروسه فى السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلامذة والمشايخ ، يقول تلميذه ومؤرخ حياته صالح مجدى : «وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى فى الحديث ، والمنطق ، والبيان والبديع ، والعروض ، وغير ذلك وكان درسه غاصاً بالجم الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه وبرع فى جميع ما أخذه عنه ، لما علمت أنه كان حسن الأسلوب ، سهل التعبير مدققاً محققاً ، قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ولا كد ولا نصب[1] .

ولقد كان من حسن حظ رفاعة أنه تتلمذ فى الأزهر على الشيخ حسن العطار ، فقد كان هذا الشيخ سابقا

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن .

لعصره ، طوف فى الأرض ، وسافر براً وبحراً ، وزار الشام ، ووصل فى تطوافه إلى الآستانة وأقام بها سنوات ، وأفاد من هذه الرحلات ، واتسع أفق تفكيره ، ولما نزلت الحملة الفرنسية بأرض مصر اتصل ببعض علمائها ولقنهم اللغة العربية كما أخذ عنهم بعض علومهم ، وأعجب بما وصل إليه الشعب الفرنسى من رقى وحضارة ، وقارن فى نفسه بين علوم الفرنسيين التى رأى بعض مظاهرها فى دار المجمع ، واستمع لبعض أفكارها فى حديثه إلى علماء المجمع ، وبين علوم المصريين التى درسها ويدرسها فى الأزهر ، فرأى الفرق كبيراً ، والبون شاسعاً ، وتنبأ لهذا البلد بنهضة علمية سريعة تنهج فيها نهج فرنسا ، قال : « لابد أن تتغير حال بلادنا ، ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها ».

وبدأ هو بنفسه فأقبل على كتب لم تكن تدرس وقتذاك فى الأزهر ، أقبل على كتب فى التاريخ والجغرافيا ، والطب والرياضة ، والفلك والأدب ، وقرأ الكثير من هذه الكتب وتفهمها ، غير أنه يبدو أن نظام التدريس فى الأزهر لم يكن ليسمح له أن يدرس بعض هذه الكتب ، أو ما أفاد منها ، وإن سمحت النظم فإن المجموعة التى كانت تحيط به من شيوخ وطلاب ما كانت لتستسيغ هذه العلوم أو تقبلها ، بل لعلها كانت تتهم المشتغلين بها بشىء من الزيغ عن الجادة ، والبعد عن علوم السلف ، وعما يجب أن يلزمه رجل الدين .

ولكن العطار كان ذا شخصية فذه ، وطريقة جديدة ، لهذا لم يلبث أن اختص به نفر من تلاميذه الممتازين ، فقربهم إليه ، وأقرأهم ما كان يقرأ [١] ، ورغبهم فى هذه العلوم الجديدة فأقبلوا عليها . فلما بدأ محمد على نهضته ، واحتاج إلى بعض مشايخ الأزهر للتدريس فى مدارسه الجديدة أو لتصحيح الكتب المترجمة ، كان تلاميذ العطار ، أمثال التونسى ، والدسوقى ، والطنطاوى الخ . . خير من ندب ، وخير من قام بالواجب الجديد فى العهد الجديد .

وكان رفاعة أقرب تلاميذ العطار وأحبهم إليه ، وقد فرح الأستاذ بنبوغ تلميذه فى التدريس بعد تخرجه ، فلبث يشمله برعايته وحسن توجيهه ، فلما طلب إليه محمد على أن يختار له إماماً لإحدى فرق الجيش الجديد ، أسرع فرشح رفاعة لهذا المنصب ، وعين الشيخ رفاعة فى سنة ١٢٤٠ (١٨٢٤) واعظاً وإماماً فى آلاى حسن بك المناسترلى ، ثم انتقل إلى آلاى احمد بك المنكلى .

وفى سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) أوفدت أول بعثة كبيرة إلى فرنسا ، وهنا أيضاً طلب محمد على إلى العطار وأن ينتخب من علماء الأزهر إماما للبعثة : يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة [٢] ،

---

(١) يقول على مبارك ، الخطط ج ١٣ ، ص ٤٤ « وكان له رحمه الله (يقصد رفاعة) منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار ، فكان يشركه معه فى الاطلاع على الكتب الغريبة التى لم تتداولها أيدي علماء الازهر » .

(٢) المرجع السابق ، ج ١٣ ، ص ٤٤ .

سافر رفاعة ليكون إماماً للبعثة لا طالباً من طلابها ، ولكنه وهو التلميذ الأثير لأستاذ مجدد صاحب مدرسة تفكيرية جديدة قداستمع إلى كثير من أحاديث شيخه وقرأ معه كتباً فى علوم لم يدرسها فى الأزهر ولا بد أن هذه الأحاديث إن معظمها كانت تدور حول ما شاهد الأستاذ الشيخ فى رحلاته خارج مصر ، وما شاهد فى مجمع الفرنسيين فى مصر ، وهذه هى الفرصة قد واتته أن يذهب لبلاد هؤلاء الذين سمع عن علمهم ونهضتهم الشىء الكثير ، ترى هل يترك هذه الفرصة تضيع دون أن يستغلها فيتزود من فرنسا بعلوم فرنسا ؟ أنه لو ذهب وقنع أن يقوم بواجبه الدينى فيؤم المبعوثين فى الصلاة ويعظهم فى أمور دينهم ، ثم يرجع معهم وقت يرجعون ، لما لامه إنسان ، ولكن رفاعة كان ذا نفس طموحة ، وآمال عريضة ، وحب للعلم ، وشغف بالبحث ، فأعد العدة بينه وبين نفسه أن يقبل على التحصيل منذ يغادر أرض مصر ، حتى يعود إلى وطنه خيراً مما غادره ، وقد بر بوعده لنفسه ، فحصل فى فرنسا الكثير ، وكان أنبغ أعضاء بعثته ، ثم كان زعيم النهضة العلمية فى عصر محمد على ، وقائدها بعد عودته . وهكذا « أراد الله أن يكون الامام فى الصلاة إماماً للحركة العلمية فى مصر [١] » .

وذهب التلميذ الفتى للأستاذ الشيخ يودعه ويشكره ، ويسأله النصيحة ، فدعا له الشيخ وباركه وزوده بما يزود به الأستاذ المستنير تلميذه النابغ وطلب إليه قبل أن يغادره أن يعنى منذ اللحظة الأولى بتقييد مشاهداته فى رحلته هذه ، فالشيخ كما يقول تلميذه « مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار [٢] » .

وفى يوم الخميس من شهر رمضان [٣] سنة ١٩٤٢ (١٤ أبريل ١٨٢٦) أبحرت السفينة من الاسكندرية تحمل رفاعة وزملاءه ، وفى التاسع من شهر شوال وصلت بهم إلى « مارسيليا » ، ومنذ وطأت قدما رفاعة أرض هذه المدينة ، بدأ يتعلم اللغة الفرنسية ، يقول فى رحلته « وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوماً التهجى [٤] » .

وفى باريس قضى تلاميذ البعثة جميعاً نحو سنة وهم يقيمون معا فى بيت واحد ، ويشتركون معاً فى دراسة مواد واحدة ، يقول رفاعة : « وكنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين ، ثم بعد الظهر درس رسم ثم

---

(١) أحمد أمين ، الشيخ رفاعة الطهطاوى ، الثقافة ، العدد ٢٣٠ .

(٢) تخليص الابريز ، ص ٤ .

(٣) أخذنا هذا التاريخ عن المرجع السابق ، ص ٣٠ ، ولكن عمر طوسون ذكر فى كتابه البعثات ، ص ١٢ أن هذه البعثة غادرت مصر فى مايو ١٨٢٦ ، ووصلت إلى فرنسا فى يوليو ، وسبب هذا الاختلاف أن الأمير اعتمد على تقرير المسيو « جومار » الذى نشره فى المجلة الآسيوية سنة ١٨٢٨ حيث ذكر فيه أن البعثة وصلت إلى فرنسا فى يوليو ١٨٢٦ ، ولا شك أن « جومار » يقصد أن البعثة وصلت إلى باريس — لا فرنسا — ، فى هذا التاريخ ، لأن البعثة قضت شهر يونيو وأياما من مايو فى مارسيليا .

(٤) تخليص الابريز ، ص ١٧٢ ، وان كان على مبارك فى المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة قد قال ، أنه « شرع حين ركوب الباخرة من الأسكندرية فى تعلم مبادىء اللغة الفرنساوية بهمة عالية وعزيمة صادقة » .

درس نحو فرنساوى، وفى كل جمعة ثلاثة دروس من على الحساب والهندسة [١] » .

وكانت هذه الخطة ترمى إلى عزل تلاميذ البعثة ، حتى لا يفسدهم الاختلاط . أو الحياة فى باريس ، وحتى يستطيعون التوفر على دراساتهم ليحصلوا العلوم التى يريدون على أحسن وجه ، وفى أسرع وقت : ولكن هذه العلوم التى أوفدوا لدراستها مودعة فى بطون المؤلفات الفرنسية ، ولا سبيل إليها إلا اتقان هذه اللغة حديثاً وقراءة وفهماً ، ولا سبيل إلى هذا الاتقان إلا أن يختلط هؤلاء الشبان بأندادهم من الفرنسيين حتى تستقيم ألسنتهم .

أحس بهذا النقص المشرفون على البعثة ، كما أحس به أعضاء البعثة أنفسهم ، يقول رفاعة : « مكثنا جميعاً فى بيت واحد دون سنة نقرأ معاً فى اللغة الفرنسية ، وفى هذه الفنون المتقدمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلا بمجرد تعلم النحو الفرنساوى [٢] لهذا صدرت الأوامر بتوزيع هؤلاء المبعوثين ، فتفرقوا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين ، أو ثلاثة ، أو واحد . . فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص ، عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم [٣] وفى هذه المكاتب أو « البانسيونات » كان التلاميذ المصريون يقضون ليلهم ونهارهم فى التحصيل ، ولم يكن يسمح لهم بالخروج إلا فى يوم الأحد ، أو بعد ظهر الخميس ، أو فى الأعياد الفرنسية ، وكان يحدث أحياناً أن يخرج بعضهم بعد العشاء إن لم يكن يشغله درس أو واجب .

وكان رفاعة أكثرهم انهماكا فى عمله ، وأشدهم إقبالا عليه ، ولم تكن تسعفه أوقات فراغه فى النهار ، فكان يقضى معظم ساعات الليل ساهراً بين كتبه ودروسه ، يقرأ ويتفهم ويترجم ، حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف ، ونصحه الطبيب بالراحة ، ونهاه عن المطالعة فى الليل ، ولكنه « لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه [٤] » .

ولم يقنع رفاعة بالكتب التى تشترى له على حساب البعثة ، فقد أحس لذة المعرفة ، فأقبل يشترى كتباً أخرى من ماله الخاص ، ثم أحس أن دروس أستاذه لا تكفى لإشباع نهمه ، فاستأجر معلماً خاصاً ظل يدرس له أكثر من سنة ، وكان يدفع له أجره من مرتبه الخاص .

أرسل رفاعة إلى فرنسا ليكون إماماً للبعثة ، ولكن يبدو أن الأوامر صدرت فى آخر لحظة أن يسمح له بالدراسة ، فإن أقبل ووفق . فليوجه إلى اتقان الترجمة ، وذلك لأن ثقافته الأزهرية فى اللغة العربية ترشحه لهذا العمل إذا ألم باللغة الفرنسية وأتقنها ، وهذا عمل واسع عريض ، لأنه غير محدود

---

(١) تخليص الابريز ، ص ١٧٢ .

(٢) و (٣) تخليص الابريز ص ١٧٢ .

(٤) من تقرير أستاذ رفاعة المسيو « شوالبه » عنه ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

فحكومة محمد على كانت مقبلة على الترجمة فى كل علم وفن : فى الهندسة والطب ، والفنون العسكرية ، والتاريخ والجغرافيا إلخ ، فواجب رفاعة إذن أن يقرأ كتبا فى كل هذه العلوم ، وأن يمرن على الترجمة فيها جميعا ، وياله من واجب شاق ! ولكن همة رفاعة كانت همة عالية ، فاستسهل الصعب ، وأقبل ووفق .

وقد ذكر رفاعة فى رحلته العلوم والفنون التى درسها ، وعين الكتب التى قرأها ، والتى ترجمها ، أو بدأ يترجمها وهو فى باريس ، ومنها نلحظ أن ثقافته كانت موسوعية ، فقد قرأ كتباً كثيرة فى مختلف العلوم مع أساتذته ، ثم قرأ كتباً كثيرة أخرى وحده ، وبرهن بهذا أنه كان يتمتع بروح جامعية حقة ، ولا عجب فقد ساعد على تزويده بهذه الروح أمور أربعـــة : المران الذى اكتسبه وهو يطلب العلم فى الأزهر ، والنفحة التى أضفاها عليه أستاذه العطار ، وحبه العجيب للعلم وشغفه بالتحصيل ، ثم نفسه العالية الطموح ، ورغبته فى إشباع هذه النفس ، وإرضاء باعثه وباعث النهضة الجديدة فى مصر ولى النعم محمد على .

وكان هناك عامل آخر ، أو حافز آخر بعث رفاعة على الجد والاجتهاد لا يقل عن العوامل السابقة إن لم يكن أقوى منها ، ذلك أن رفاعة درس دراسة دينية فى أكبر جامعة دينية ، ثم تخرج عالماً دينياً ، وكان تلميذاً لشيخ الأزهر ، كما كان قوى الإيمان متين العقيدة ، وقد راعه منذ اللحظة الأولى الفارق الكبير بين ما كانت تتمتع به ديار المسيحية من تقدم فى مختلف نواحى الحياة ، وبين ما كانت تتمتع به مصر وديار الإسلام من تأخر وخمود وجمود فى مختلف نواحى الحياة ، وخاصة فى الناحية العلمية . ورحلته مليئة بهذه المقارنات . لهذا نحس فى جهوده التى ذكرها أنه ما كان يفرغ من قراءة كتاب فى أى علم أو فن حتى يقبل على ترجمته ، يريد بذلك أن ينقل لديار الإسلام وبنيه هذا العلم الجديد علّه يسمهم إلى نهضة جديدة تنتهى بهم إلى أن يكونوا كأبناء المسيحية حضارة ورقيا ، ولكن أنى له الوقت لترجمة هذه الكتب جميعا؟ ومع هذا فقد بدأ وترجم كتبا أو رسالات صغيرة ، ثم ترجم فصولا من الكتب الكبيرة : وكأنى به قد ترك الباقى حتى يعود لمصر فيتم مابدأ ، وقد فعل ، ولكن جهده جهد انسانى محدود ، ووقته وقت محدود . وهنا ترقب الفرص حتى سنحت له فعرض على محمد على مشروعه لإنشاء مدرسة الألسن ، وقد أنشئت واتسعت بعد انشائها حركة الترجمة ، واستطاع رفاعة أن يحقق بعض آماله ، ويؤيدنا فى رأينا أن معظم الكتب الأولى التى ترجمها خريجو الألسن هى الكتب التى قرأها رفاعة فى باريس ، والتى كان يتمنى أن يترجمها بنفسه[1] .

والآن ليس أحسن من أن ننقل هنا تقرير رفاعة نفسه عن الكتب التى قرأها ، وعن جهوده فى الدراسة والترجمة وهو فى باريس ، قال فى رحلته :

---

(١) أنظر كتابنا ، رفاعة الطهطاوى ، زعيم النهضة الفكرية فى مصر محمد على ، مجموعة أعلام الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

فى التاريخ : « ابتدأنا فى بيت الأفندية حين كنا معاً بكتاب سير فلاسفة اليونان [١] ، فقرأناه وتممناه ، ثم ابتدأنا بعده فى كتاب تاريخ عام مختصر يشتمل على سير قدماء المصريين [٢] والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود ، وفى آخره نبذة مختصرة فى علم « الميثولوجيا » يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم ، ثم قرأت عند مسيو «شواليه» كتاباً يسمى لطائف التاريخ ، يتضمن قصصاً وحكايات ونوادر ، ثم بعده قرأت كتاباً يسمى سير أخلاق الأمم [٣] وعوائدهم وآدابهم ، ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها ، ثم كتاب رحلة « انخرسيس » [٤] الأصغر إلى بلاد اليونان ، ثم قرأت كتاب «سيغور» فى التاريخ العام ، ثم سيرة نابليون ، ثم كتاباً فى علم التواريخ والانساب ، ثم كتاباً يسمى «بانوراما» العالم يعنى مرآة الدنيا ، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانيـــة ، ثم رحلة فى بلاد الجزائر [٥].

فى الرياضيات : وقرأت فى الحساب كتاب « بزوت Bezoût » ، وفى الهندسة الأربع مقالات الأول من كتاب « لوجندر » [٦] Legendre .

فى الجغرافيا: وقرأت مع المسيو « شواليه » كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة أخرى فى الجغرافية الطبيعية مقدمة لقاموس فى الجغرافية يعنى معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير مسيو « شواليه » ، وقرأت أيضا مع مسيو « شواليه » جملا عظيمة من جغرافية «ملطبرون» [٧] ، ورساله ألفها لتعليم بنته فى هيئة الدنيا ، وقرأت وحدى مؤلفات عديدة فى هذا الفن .

فى علوم وفنون مختلفة كالمنطق والفلسفة والقوانين والاجتماع والأدب والمعادن والفنون الحربية :

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) يؤيد رأينا السابق أن أربعة من هـذه الكتب التاريخية قد ترجمها رفاعه وتلاميذه فى مدرسة الألسن وهى : سير فلاسفة اليونان ، وقد ترجمه عبد الله افندى حسين أحد تلاميذ الألسن وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٢ تحت عنوان « تاريخ الفلاسفة اليونانيين » ، وتاريخ قدماء المصريين والعراقيين الخ واسد تعاون أهل ترجمته ثلاثة من تلاميذ الألسن ثم مصطفى الزرابى ومحمد عبد الرازق وعبد الله أبو السعود ، وراجعه وقدم له رفاعه ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٤ تحت عنوان بداية القدماء وهداية الحكماء ، ثم طبع طبعة ثانية فى سنة ١٢٨٢ فى عصر اسماعيل ، وكتاب سير أخلاق الأمم الخ وقد ترجمه رفاعه وهو فى باريس وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٩ تحت عنوان « تلائد الفاخر فى غرب عوائد الأوائل والأواخر » ، ثم رحلة « انخرسيس » وقد وزع فصولا على اثنى عشر مترجما من خريجى الألسن فى ذى الحجة سنة ١٢٦٠ لترجمة فى مدد تتراوح بين « و ١٠ أشهر ، وثائق عابدين دفتر ٢٠٩٨ ، ص ١٥٣ ، رقم ٢٤ ، ٣٥ الحجة ١٢٦٠ ، من مدرسة الألسن إلى ديوان المدارس ، ولكن هذه الترجمة لم تطبع أنظر الملحق الرابع فى آخر الرسالة .

(٥) تخليص الابريز ، ص ١٨٦ .

(٦) تخليص الابريز ، ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٧) بدأ رفاعه فترجم فصولا من هذا الكتاب وهو فى باريس ، ثم ترجم الجزئين الأول والثالث منه بعد عودته إلى مصر

وقرأت كتاباً فى علم المنطق [١] الفرنساوى مع مسيو « شواليه » ومسيو « المونرى » ، وعدة مواضع من كتاب « ليرترواياك » من جملتها المقولات ، وكتاباً آخر فى المنطق يقال له كتاب « قندلياق Condillac » غير فيه منطق أرسطاطو ، وقرأت مع مسيو « شواليه » كتاباً صغيراً فى المعادن [٢] ، وترجمته ، وقرأت كثيراً من كتب الأدب فنها مجموع « نويل » ، ومنها عدة مواضع من ديوان « ولتير Voltaire » و « رسين Racine » و ديوان « روسو Rousseau » خصوصا مراسلاته الفارسية Lettres Persanes. التى يعرف بها الفرق بين آداب الأفرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية ، وقرأت أيضاً وحدى مراسلات انكليزية وصنفها « القونت شسترفيلد » لتربية ولده وتعليمه ، وكثيراً من مقامات الفرنساوية وبالجملة فقد اطلعت فى الآداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة ، وقرأت فى الحقوق الطبيعية : Droit naturel مع معلمها كتاب « برلماكى Burlamaqui » وترجمته ، وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين ، يجعله الإفرنج أساساً لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت أيضاً مع مسيو « شواليه » جزئين من كتاب يسمى « روح الشرائع » l'Esprit des Lois. مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له « منتسكوا Montesquieu » وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الأفرنجى ، كما إن ابن خلدون يقال له عندهم أيضاً « منتسكو » الشرق أى « منتسكو الإسلام » ، وقرأت أيضاً فى هذا المعنى كتاباً يسمى عقد التأنس والاجتماع الانسانى : Le Contrat Social. مؤلفه يقال له « روسو » وهو عظيم فى معناه ، وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة محال نفيسة فى معجم الفلسفة للخواجه « ولتير » وعدة محال فى كتب فلسفة « قندلياق » ، وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو « شواليه » من غير تعرض للعمليات ، وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى « علميات كبار الضباط » مع مسيو « شواليه » مائة صفحة ، وترجمتها ، وقرأت كثيراً فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية التى تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة « البوليتيقة » وكنت متولعا بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية وربما كنت أترجم [٣] منها مسائل علمية وسياسية خصوصا وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية . [٤]

---

(١) ترجم فى عصر محمد على كتاب واحد فى المنطق من تأليف « ديمرسيه » Dumarsais ترجمه خليفة محمود أحمد الخرشى الألفى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٤ تحت عنوان « تنويو الشرق بعلم المنطق » .

(٢) هذا الكتاب من تأليف « فرارد » وقد ترجمه رفاعه وهو فى باريس ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٨ تحت عنوان « المعادن النافعة » .

(٣) أورد رفاعه فى رحلته ، ص ١٨٨ — ١٩١ ترجمة مقالة من هذه المقالات : وهى رسالة من جندى فرنسى كان متطوعا فى الجيش الروسى أثناء الحرب بين روسيا وتركيا .

(٤) تخليص الابريز ، ص ١٨٧ — ١٨٨ ، أنظر أيضا :

Cara de Vaux; les Penseurs de l'Islam, t.V, pp. 242 — 243.

هذه هى العلوم التى درسها رفاعة والكتب التى قرأها، وهى تدل — كما سبق أن ذكرنا — على أنه ثقف ثقافة موسوعية ، وقد كان لابد له أن يتثقف هذه الثقافة ما دام قد بعث للتخصص فى الترجمة ، حتى إذا طلب إليه بعد عودته أن يترجم فى أى علم من العلوم لبى الطلب ونفذ الأمر ، وهذا ما حدث فعلا فإنه عين بعد عودته مترجماً بمدرسة الطب ثم نقل مترجماً بمكتب طره الحربى ، ولما أنشئت الألسن كان يشرف على أعمال خريجيها الذين ترجموا كتباً فى كل هذه العلوم والفنون .

قضى رفاعة ستة فى باريس ، ثم عقد له ولزملائه امتحان فى نهاية هذه السنة ، فنجح رفاعة بتفوق ، وأرسل إليه مسيو « جومار » مدير البعثة جائزة التفوق ، وهى كتاب « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان » وهو « سبعة مجلدات جيدة التجليد منوهة بالذهب [١] » ، وأرسل إليه مع الجائزة خطاباً تاريخه أول أغسطس سنة ١٨٢٧ كله تشجيع وتقدير لما بذل رفاعة من جهد ولما نال من نجاح جاء فيه « قد استحقيت هدية اللغة الفرنساوية بالتقدم الذى حصلته فيها ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير ، ولقد حق لى أن أهنىء نفسى بإرسالى لك هذه الهدية من الأفندية النظار دليلا على التفانك فى التعليم ، ولا شك أن ولى النعمة يسر متى أخبر أن اجتهادك ، وثمرة تعليمك يكافآن للمصاريف العظيمة التى يصرفها عليك ، فى تربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام مصحوباً بالمودة . . . [٢] » .

وبعد عام آخر عقد امتحان ثان فوفق فيه كما وفق فى سابقه ، وكانت جائزته فى هذه المرة كتابين من تأليف المستشرق الفرنسى « دى ساسى » وهما : « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » و « جامع الشذور من منظوم ومنثور [٣] » .

وفى باريس اتصل الشيخ رفاعة بكبار المستشرقين الفرنسيين ، وخاصة المسيو « سلفستر دى ساسى » و « المسيو كوسان دى برسيفال » ، ونشأت بينه وبين هذين العالمين صداقة متينة وكان كل منهما يقدر جهد الشيخ التلميذ وعلمه ، وقد تبودلت بينه وبينهم كثير من الرسائل أثبت بعضها رفاعة فى رحلته ، وقد أطلعهما قبيل سفره على مخطوطة رحلته فأعجبا بها ، وكتبا عنها تقريظاً ، وأرسل كل منهما — للمسيو « جومار » بصفته مدير البعثة — خطاباً كله ثناء وتقريظ لرفاعة وكتابه ، قال « دى ساسى » : « أن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً فى بلاده ، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس وله عندى منزلة عظيمة ومحبة جسيمة » [٤] .

---

(١) تخليص الابريز ، ص ١٩١ .
(٢) المرجع السابق . ص ١٩٢ .
(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

وقال « دى برسيفال » : « إن هذا التأليف (الرحلة) يستحق كثيراً من المدح ، وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فإنه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها ، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا فى العلوم البشرية ، والفنون النافعة ، أظهر التأسف على ذلك وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الأفرنجى والترقى فى صنايع المعاش ، وماتكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك . ومانظر فيه فى بعض العبارات على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل ، وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التنميق ومع ذلك فهى لطيفة . . إلخ[1] .

وبعد خمس سنوات عقد لرفاعة الامتحان النهائى ، فجمع المسيو « جومار » مجلساً فيه عدة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الامتحان[2] ، يقول رفاعة ، وكان القصد بهذا المجلس معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا[3] » .

وتقدم رفاعة إلى لجنة الامتحان بخلاصة مجهوداته فى الترجمة طول هذه السنوات الخمس ، وهى اثنتا عشرة رسالة ترجمها عن الفرنسية إلى العربية ، وهذا بيانها :—

١ — نبذة فى تاريخ اسكندر الأكبر[4] مأخوذة من تاريخ القدماء .
٢ — كتاب أصول المعادن .
٣ — روزنامة (يقصد تقويم) سنة ١٢٤٤ ، ألفه مسيو « جومار » لاستعمال مصر والشام ، متضمناً لشذرات علمية وتدبيرية .
٤ — كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم .
٥ — مقدم جغرافية طبيعية مصححة على مسيو « دهنبلض » .
٦ — قطعة من كتاب « ملطبرون » فى الجغرافية .
٧ — ثلاث مقالات من كتاب « لجندر » فى علم الهندسة .
٨ — نبذة فى علم هيئة الدنيا .
٩ — قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية .

---

(١) تخليص الابريز ، ص ١٨٢ .

(٢) و (٣) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٤) ارجح أن تكون هذه النبذة جزء من كتاب « بداية القدماء وهداية الحكماء » الذى ترجمه فيما بعد بعض خريجى الألسن تحت اشراف رفاعه . أنظر هذا الكتاب ، الطبعة الثانية ، بولاق ١٢٨٢ ، ص ١٣٤ — ١٥٠ .

١٠ — اصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الافرنج .

١١ — نبذة فى الميثولوجيا [١] يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم .

١٢ — نبذة فى علم سياسات الصحة [٢] .

كذلك قدم رفاعة للجنة الامتحان كراسة أخرى فيها مخطوطة رحلته إلى باريس ، وذلك لأن هذه الرحلة ليست تأليفاً كلها ، بل فيها نبذ كثيرة مترجمة فى مختلف العلوم قصد بها رفاعة إلى تقريب هذه العلوم إلى القارىء المصرى ، وشرح نهضة الفرنسيين العلمية ، ومدى إقبالهم على الدرس والتحصيل ، وفى هذه الرحلة أيضاً ترجم رفاعة الدستور الفرنسى الذى وضعه « لويس الثامن عشر » . وسماه « الشرطة [٣] » .

وفيها أيضاً ترجم بعض الأشعار الفرنسية إلى شعر عربى ، وبعض هذا الشعر لشعراء مجهولين ، وبعضه أبيات « من القصيدة المسماة نظم العقود فى كسر العود ، للخواجة يعقوب المصرى منشـــأ ، الفرنساوى استيطاناً [٤] » .

وقد ذكر رفاعة أنه ترجمها فى سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦ — ١٨٢٧) أى بعيد وصوله إلى باريس بقليل ، وقد أحس رفاعة أن الشعر يفقد كثيراً من روعته إذا ترجم من لغة إلى أخرى ، فقال فى نهاية القصائد التى ترجمها : « وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ، ولكن بالترجمة تذهب بلاغتها ، فلا تظهر على نفس صاحبها ، ومثل ذلك لطائف القصائد العربية فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الأفرنجية من غير أن يذهب حسنها ، بل ربما صارت باردة [٥] . . . »

---

(١) ارجع أن تكون هذه النبذة جزء من ملحق الكتاب السابق فى موضوع « الميثولوجيا اليونانية » ترجمة محمد عبد الرازق أحمد خريجى الألسن ، المرجع السابق ص ٢٠١ — ٢٧٩ .

(٢) أرجح أن تكون هذه النبذة هى التى ضمنها رفاعة رحلته تحت عنوان « نبذة فى قانون الصحة » فقد قال فى ص ١٢٠ « ولنذكر لك نبذة من قوانين الصحة ، وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة ، وهذه النبذة ترجمناها بباريس لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها لصغر حجمها . . الخ » أنظر تخليص الأبريز ، ص ١٢٠ — ١٣٩ .

(٣) ترجمة هذا الدستور موجودة فى تخليص الأبريز ، ص ٨١ — ٩٣ وانظر أيضا ص ١٩٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٦ — ٧٩ ، وفيما يلى بعض أبيات من قصيدة الخواجة يعقوب التى ترجمها رفاعة :

أحرق العشق قلبها كاحتراق ... فأتت تطفىء اللظا بالدماق

فضممنا ضمة المشتاق ... وتلاثمنا عادة العشاق

فتثنت لتخجل الغصن قدا

هذا ولم أوفق لمعرفة شىء عن هذا الشاعر يعقوب أكثر مما ذكر رفاعة ، وقد ذكر عمر طوسون ، البعثات ، ص ١٥٣ — ١٥٤ أنه كنيا . ا ذكر فى دفتر رقم ٨٢٥ (بدار المحفوظات المصرية ، وهو دفتر به حساب بعثة ١٨٢٦) اسم الخواجة يعقوب ، وأمامه مبالغ من الفرنكات شهرية ، قيمة مشروبه من النبيذ ، وقد عقب الأمير على هذا بقوله ، وانا لا ندرى من هو الخواجة يعقوب هذا ، وما هى المهمة التى كان يتقاضى عنها هذا المرتب » .

(٥) تخليص الابريز ، ص ٧٦ — ٧٩ .

ولم تقتنع لجنة الامتحان بهذه الجهود المكتوبة ورأت أن تختبره اختباراً شفهياً لتتأكد من مقدرته على الترجمة الصحيحة ، فأحضرت له بعض الكتب المطبوعة فى بولاق ، فترجم بعض فقراتها بسرعة ، ثم قرأ بالفرنساوى مواضع منها ما هو صغير ، ومنها ما هو كبير فى كازيطة مصر المطبوعة فى بولاق[1] ، (يقصد الوقائع المصرية) .

وبهذا تم اختباره فى الترجمة عن العربية إلى الفرنسية ، ثم أعطته اللجنة النص العربى للرسالة التى ترجمها عن « عمليات رؤساء الضباط العسكرية » ، وأمسك أحد أعضاء اللجنة بالنص الفرنسى ، وأعاد رفاعة ترجمة النص الذى بيده إلى الفرنسية ، والممتحنون يقابلون بين ما يقول وبين النص الأصلى الذى بأيديهم ، ووفق فى ترجمته ، وقررت اللجنة « أنه تخلص من هذا الامتحان على وجه حسن ، فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الأصل المترجم[2] » ، ولكنها أخذت عليه أنه « ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر ، من غير خلل فى المعنى المراد ، مثلا فى تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا ، غير العبارة بقوله علم العسكرية بحر عظيم يستخرج منه الدرر ، وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، ولكن من غير أن يقع فى الخلط ، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلى ، وقد عرف الشيخ الآن أنه إذا أراد أن يترجم كتب علوم ، فلا بد له أن يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييراً مناسباً للمقصود[3] » .

وبنفس الطريقة اختبر فى كتاب آخر مما ترجمه وهو « مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافية الطبيعية » ، ولاحظت اللجنة أن ترجمة هذا الكتاب ضعيفة ، ولكنها التمست لرفاعة العذر لأنه ترجمه بعيد وصوله إلى فرنسا ، ولم يكن قد وصل حينذاك إلى « درجته الآن فى اللغة الفرنساوية » ، ولهذا كانت ترجمته لهذا الكتاب أضعف من ترجمته للكتاب السابق ، « وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها ، وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيئاً بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة[4] » وتفرق الممتحنون أخيراً وهم مجمعون على اتقانه صناعة الترجمة وعلى « أنه يمكنه أن ينفع فى دولته بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها فى نشر العلوم ، والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة . . . [5] » .

اجتاز رفاعة الامتحان بعد أن قضى فى فرنسا ٥ سنوات طوال أقبل فيها على الدرس والتحصيل إقبال الطالب المجد المحب لعمله ، وقد قرأ فى هذه السنوات كتباً شتى فى علوم متباينة ، وترجم الكثير من هذه الكتب ، ولكنه — متأثراً بميله الخاص وبدراسته الأدبية الأولى فى الأزهر — شغف أكثر

---

(١) و (٢) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٤) و (٥) تخليص الابريز ، ص ١٩٤ .

ما شغف بعلمى التاريخ والجغرافيا، ورشح نفسه لترجمة هذين العلمين ، فهو يقول فى خاتمة رحلته : «وإن شاء الله تعالى بأنفاس ولى النعم يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية إلى لغتنا . . فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله تعالى ، وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون حتى تعـــد دولته من الأزمنة التى تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة فى مصر مثل تجددها فى زمن حلفاء بغداد . . .[١]» .

فى رمضان سنة ١٢٤١ غادر رفاعة الاسكندرية مرتحلا إلى فرنسا وفى رمضان سنة ١٢٤٦ غادر باريس عائداً إلى مصر . خمس سنوات كاملة تغير فيها الشيخ عقلا وعلماً وتفكيرا وآمالا ولكنه لم يتغير بل لم يتأثر ديناً وأخلاقاً ، يقول على مبارك : ولم تؤثر إقامته بباريز أدنى تأثير فى عقائده ، ولا فى أخلاقه وعوائده . . .[٢] » .

وفى الاسكندرية تشرف بمقابلة ابراهيم باشا فرحب به لأنه سمع عنه ثناء جما أثناء زيارته لباريس ، ولأنه كان يعرف أسرته فى طهطا معرفة وثيقة ، وفى ختام المقابلة وعده ابراهيم باشا ، بدوام الالتفات إليه[٣] » ، وأنعم عليه بستة وثلاثين فداناً فى الخانقاه فكانت أول مكافأة نالها رفاعة على جده واجتهاده وأول الغيث طل .

وسافر إلى القاهرة وحظى بمقابلة ولى النعم محمد على باشا ، وكان محمد على قد عرفه معرفة أكيدة من تقارير «مسيو جومار» الكثيرة عنه ، وكلها مدح وتقريظ لجهوده وتقدير لعمله ، وفى هذه المقابلة لقى رفاعه من مولاه كل عطف وتشجيع ، ورأى من ميله إليه ما حمله على الثقة بنجاح المبدأ والنهاية[٣] ، وصدر أمره العالى بتعيينه مترجما بمدرسة الطب فكان أول مصرى يعين مترجما بهذه المدرسة فقد كانت هيئة المترجمين جميعاً حتى ذلك الوقت من السوريين كما سبق أن ذكرنا ، لهذا لم يلبث رفاعة أن تفوق عليهم فى عمله ، فهو يتقن العربية اتقاناً لا يدانيه فيه أحد من هؤلاء المترجمين السوريين وهو يجيد الفرنسية مثلما يجيدونها وترجمته فى النهاية صحيحة سليمة لا تحتاج — كترجمة السوريين — إلى مراجعة أو تصحيح شيخ من شيوخ الأزهر المحررين بالمدرسة .

لبث رفاعه مترجما فى مدرسة الطب نحو سنتين ، ولكنه يبدو أنه كان فى هذه المدرسة مصححاً ومحرراً أكثر منه مترجما إذ لم يعرف أنه ترجم فى الطب غير الرسالة[٤] الصغيرة التى ترجمها وهو فى باريس

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .

(٣) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٥٤

(٤) ذكر صالح مدى فى حلية الزمن أن رفاعة ترجم فيما ترجم ، رسالة فى الطب ، وليس فى كتب رفاعة التى طبعت رسالة بهذا العنوان ، أنظر أيضا الرافعى ، عصر محمد على ، ص ٥١٤ ، [illegible]

وضمنها رحلته . ولكنه قام فى هذه الفترة بمراجعة كتاب «التوضيح لألفاظ التشريح» فى الطب البيطرى [١] ، الذى ترجمته يوسف فرعون وصححه مصطفى كساب ، فقد قرر مجلس الجهادية فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨ ، بناء على ما ورد على مجلس المشورة فى مدرسة الطب البيطرى الموافقة على طبع كتاب التشريح الذى ترجم بعد مراجعة الترجمة بمعرفة الشيخ رفاعة افندى وهرقل اليكباشى واتضاح صحتها . . . [٢] وقد ذكر فى خاتمة الكتاب أنه تم ترجمة فى التاسع عشر من شعبان سنة ١٢٤٧ وأنه تم طبعاً فى بولاق فى غرة صفر سنة ١٢٤٩ [٣] وفى سنة ١٢٤٩ نقل رفاعة من مدرسة الطب ليكون مترجما بمدرسة الطوبجية [٤] بطرة خلفاً للمستشرق الشاب «كنيك Kœnig» ، وفى هذه المدرسة قام رفاعة بترجمة بعض الكتب الهندسية والجغرافية اللازمة لمدرسة الطوبجية وغيرها من المدارس الحربية ، فأتم أولا ترجمة كتاب «مبادىء الهندسة» [٥] الذى طبع فى سنة ١٢٤٩ .

أما علم الجغرافيا ، وهو العلم الحبيب إلى رفاعة منذ كان يتلقى العلم فى باريس ، فقد كان علماً هاماً وضرورياً لتلاميذ المدارس الحربية ، ولم يكن فى متناول أيديهم حتى ذلك الحين كتاب واحد فى هذا العلم باللغة العربية أو التركية ، فأشار «سكورابيك» Don Antoni de Seguera ناظر المدرسة بأن يعيد طبع كتاب «الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار» ، وهو كتاب جغرافى صغير سبق أن طبع فى مالطة غير أن رفاعة وجد أن عبارة الكتاب «مالطية وحشية» فأعاد تصحيحها وتحريرها حتى خرجت الطبعة الثانية «بالنسبة للعبارة أظرف من طبعة مالطة وأجمل» ومع هذا فإن رفاعة لم يقنع بأن يعتمد على مجهود غيره ، وقد كان فى عزمه منذ عاد من البعثة أن ينقل كتب الجغرافية التى قرأها إلى العربية ، فبدأ بترجمة كتاب خاص أسماه «النعريبات الشافية لمريد الجغرافية» . وهو كما يتضح من مقدمته أصول دروسه فى هذا العلم تخيرها من كتب فرنسية مختلفة — لا من كتاب واحد — وألقاها على تلاميذ مدرسة خاصة أنشئت فيما يبدو ملحقة بمدرسة طرة لتدريس علم الجغرافية ولتخريج مدرسين مختصين فى هـــذا العلم يتولون تدريسه فى المدارس الحربية الأخرى .

---

(١) كانت مدرسة الطب البيطرى قد نقلت فى ذلك الوقت من رشيد الى أبى زعبل لتكون ومدرسة الطب البشرى تحت اشراف واحد

(٢) الوقائع المصرية ، العدد ٤٤٦ ، غرة جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨ .

(٣) التوضيح لالفاظ التشريح ، ص ٢٩١ — ٢٩٢

(٤) صالح مجدى ، المرجع السابق ، ص ١٥ ، وانظر تفصيلات وافية عن هذه المدرسة فى مؤلف عبدالكريم : المرجع السابق ص ٤٠٣ — ٤١٨ .

(٥) طبع هذا الكتاب طبعة ثانية فى ١٢٥٩ وثالثة فى ١٢٧٠ فى مطبعة الهندسخانه ، وقام بتنقيح الطبعة الأخيرة « برعى أفندى » وبتصحيحها الشيخ الدسوقى ، أنظر الطبعة الثالثة ، ص ٣ — ٤ .

لم تشر المراجع التى كتبت عن تاريخ التعليم فى عصر محمد على إلى هذه المدرسة ولكن بعض وثائق العصر أشارت إلى وجودها وأيد هذا الوجود رفاعة نفسه فى مقدمته للكتاب السابق الذكر ، فقد صدر أمر من محمد على باشا إلى ناظر الجهادية فى ١٤ جمادى الآخره سنة ١٢٥١ (قبيل إنشاء مدرسة الألسن) بتعيين (عبده) مدرساً للجغرافيا بمكتب البيادة بدمياط ، وهو ضمن الأربعة المتممين السابق ارسالهم لطره للقيام بتدريس (يقصد تعلم) الجغرافيا بمدرستها ، وهم من الذين رباهم الشيخ رفاعة، وارسال ١٠ شبان للشيخ لتربيتهم » . [1]

وهذه كما يتضح من الأمر السابق لم تكن مدرسة بالمعنى الصحيح ، ولكنها لم تعـــد أن تكون فصلا ملحقاً بمدرسة المدفعية خصص لتعليم بعض الطلبة علم الجغرافية . ليتخرجوا مدرسين لهذا العلم فى المدارس الحربية الأخرى ، غير أن رفاعة يسمى هذا الفصل مدرسة ، ويذكر أنها أنشئت بموافقة «مشورة الجهادية» لتعليم الجغرافيا والتاريخ ، فلا بأس اذن من أن نحاول شرح الأسباب التى أدت إلى فتح هـذا الفصل أو المدرسة ، فإنها فى نظرى النواة التى نشأت عنها مدرسة الألسن بعد قليل .

لم يكن رفاعة على اتفاق مع (سكويرابيك) ناظر المدسة ، فقد عرف هذا الرجل باعتـداده الزائد بنفسه ، وبحدة طبعه ، وبعدائه للفرنسيين ، وبالتالى للمثقفين ثقافة فرنسية ، فهو أسبانى الأصـل ، وكان — قبل حضوره إلى مصر — ضابطاً برتبة (كولونيل) فى سلاح المدفعية فى الجيش الأسبانى ، واليه كما يقول الدكتور عزت عبد الكريم «يرجع الفضل فى إنشاء المدفعية المصرية ، ومدرسة المدفعية بطره» ، غير أنه للأسباب السابق ذكرها كان يرفض أن يستمع لأوامر مختار بك مدير المدارس ، كما كان يكره سليمان باشا مفتش الحربية كرها شديدا ، ويطعن فى معارفه العسكرية ، وخاصة فى فن المدفعية ، وقد أدت هذه السياسة ، وهذا الخلق ، إلى عزله فى سنة ١٨٣٦ (١٢٥١) ، ففى تلك السنة صدرت أوامر محمد على بتكوين لجنة لتنظيم التعليم فى مصر ، ورأت اللجنة أن يكتب كل عضو فيها اقتراحاته ، ثم يجتمع الأعضاء فينظرون فى هذه المقترحات مجتمعين ، ولكن «سكويرابيك» رفض وحده هذا الرأى ، قائلا أنه لا يخضع لرأى غيره ، ولا يعمل إلا مايراه هو » ، فكان ذلك سبب عزله لاعتباره أجنبياً عن مصلحة الجناب العالى وليس من العقل ائتمان الأجنبى المتجنب على المصالح ، كما كان عزله سبباً فى طاعة بقية نظار المدارس ، فانصرفوا ينفذون القرار ، ويدونون مقترحاتهم [2] .

لم يكن من المنتظر إذن أن تحسن العلاقات بين رفاعة وبين هذا الناظر المتعجرف وكان رفاعة قد

---

(١) تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٤٥١ .

(٢) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ — ٤١٦ . (من وثائق عابدين ، دفتر ٢١٢ ، نمرة ٤ ، ص ٣٩ ، ولم ١٧٧ الى الباشا السر عسكر ، فى ١٩ رمضان ١٢٥١) .

شغف منذ كان طالباً فى باريس بدراسة وترجمة على التاريخ والجغرافيا ، ورسم لنفسه أن يقوم بترجمة الكتب فيهما بعد عودته ، فقد قال فى رحلته ، وإنشاء الله تعالى بأنفاس ولى النعم يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية إلى لغتنا ، وبالجملة نقد تكفلنا بترجمة على التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة ، بمشيئته تعالى ، وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون . . »[1] ، فلعله رفع — وهو يدرس الجغرافيا بمدرسة طرة إلى محمد على باشا ، أو إلى مشورة الجهادية اقتراحه بأن ينشىء مدرسة لتدريس هذين العلمين وترجمتهما ، ولعل المشورة وافقت على إنشاء هذا الفصل كتجربة فإذا تبين نجاحه أكملته ، وزادت فى اختصاصه . يقول رفاعة فى مقدمة « التعريبات الشافية » موضحاً لهذه الفكرة ، وداعياً لها ، ومبيناً للغرض من ترجمة هذا الكتاب ، وطريقة ترجمته : « . . لما سمحت مشورة الجهادية ، ذات الآراء السنية الذكية ، أن أفتح لفنون الجغرافيا والتاريخ مدرسة تكون على قراءة هذه العلوم مؤسسة ، لتشتهر ثمراتها الزاهرة ، فى أيالات أفندينا الفاخرة العامرة ، فإن ذلك مما تدعو الحاجة إليه ويتأكد العمل به والوقوف عليه ، لاسيما لأرباب الدولة والسياسة المدنية ، وأصحاب التدبير والإدارة الملكية ، وأصول أهل المناصب وضباط الطوائف العسكرية ، وكامل ذوى الصنايع والحرف والمهمات التجارية ، فكل من تأمل فيها وعرف ، رقى فيها إلى أعلى مراتب الفضل والشرف ، على أن كثيراً منها ما تبنى عليه أحكام شرعية ، وحكم وآداب عرفية وقوانين بين سائر ملوك البرية . فهو لمثل هذا الغرض ، يعد عند أرباب الصناعة من المفترض ، أخذت عدة تلامذة لهذا المعنى الممدوح ، وتوجهت بالقلب والقالب لتعليمهم بصدر مشروح ، وليس بيدى من كتب الجغرافيا شىء باللغة العربية يحتوى على التفصيل والترتيب على نسق ما فى الكتب الأفرنجية ، فلهذا اعتمدت كتاباً موجزاً فى هذا الفن النفيس موضوعاً لمدارس مبادىء العلوم بمدينة باريس ، وشرعت فى ترجمته درساً بعد درس لهذا القصد حتى لا يضيع السعى ولا يخيب الجد ، ولما رأيت أن مؤلفه أطنب فى أوربا لكونها وطنه ، وأوجز فى غيرها حيث لم تكن داره ولا سكنه ، فبهذا الوصف لا يكون لنا كافياً ، ولا لغليل المتطلعين إليه شافياً ، وكنت أطلعت على غيره من كتب العلوم الجغرافية ، ومارست كثيراً منها ، وراعيتها حق رعايتها مدة إقامتى بمملكة الفرنساوية ، أردت أن أتم المرام بتلخيص ماينا سب المقام ، حتى تحصل الموازاة والموازنة ، والمعادلة والمقارنة . . » إلى أن قال « وإنشاء الله يترجم من اللغة العربية إلى اللغة التركية ، حتى تكون ثمرته عامة جلية ، وأسأله تعالى أن يجعله من المؤلفات المطلوبة والمصنفات المرغوبة فى سائر مدارس أفندينا الناجحة . . الخ »[2] .

---

(١) تخليص الابريز ، ص ٢٤٤ .

(٢) ص ٣ — ٤ ، وقد طبع هذا الكتاب فى ١٢٥٠ ، ثم أعيد طبعه فى ١٢٥٤هـ ، وقد أضاف اليه رفاعه ملحقا فى =

ولعل الأمر الصادر من محمد على فى ٥ ذى الحجة سنة ١٢٤٩ ، بطبع ألف نسخة من كتاب الجغرافيا المترجم عن الفرنسية للعربية بمعرفة الشيخ رفاعة ، خاص بذلك الكتاب فقد تم طبعه فى سنة ١٢٥٠ ، وهو أول ما ترجم من الكتب الجغرافية . وقد أشير فى نفس الأمر إلى طبع « ألف نسخة من الأطلس بعد إتمام ترجمته بمعرفة المذكور ، وذلك « لما فى هذين الكتابين من المنفعة الكلية التى تعود على تلامذة المدارس » ، غير أننى لم أعثر فى فهارس الكتب العربية المطبوعة على أثر لهذا الأطلس[1] ، فلعله لم يتم ترجمة ، أو لعله ترجم ولم يطبع .

انتهى رفاعة من ترجمة هذا الكتاب فى الشهر الأخير من سنة ١٢٤٩ ، ثم أسلمه للطبعة فى أوائل ١٢٥٠ ، فطبع ، وكان قد قدم للطبعة فى هذه السنوات الثلاث التى مرت منذ عودته من فرنسا (١٢٤٦—١٢٤٩) كتابين مما ترجم وهو فى باريس ، وهما :

١ — كتاب المعادن النافعة ، تأليف « فرارد » وهو رسالة صغيرة فى ٤٧ صفحة من القطع المتوسط ، ذكر رفاعة فى خاتمته أنه ترجمه « بمشورة جناب مسيو جومار ، ناظر الأفندية بباريس ، ومحب الديار المصرية وعزيزها ولى النعم » ، وقد تم طبع هذا الكتاب فى بولاق فى شوال سنة ١٢٤٨ .

٢ — « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » وهو رسالة صغيرة أيضاً تقع فى ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، ذكر رفاعة أنه ترجمها إجابة لطلب المسيو « جومار » فقد قال فى مقدمته ص ٥٣ « قد اشتهر بين الخاص والعام أن طائفة الافرنج قد امتازت الآن بين الطوائف بالتجارات والمخالطة لسائر البلاد ، بل لقد اتخذت معرفة البلاد وأحوالها سبباً ، وانتخبت بذلك نخباً ، فاتسعت معارفها فى الجغرافيا والميقات ، ولا زالت فى الزيادة فى العلوم على سائر الأوقات ، فلا سبيل حينئذ فى معرفة أحوال البلدان والخلائق إلا بنقلها عمن حققها من الافرنج ، ولاشك أن من أعلم الافرنج وأحكمهم طائفة الافرنسيس ، فإنها الآن بلاد الفنون والمصانع من غير شك وتلبيس ، ولما كان للفقير معرفة هذه اللغة وفيه ملكة مطالعة عظيم كتبها وتمييز الغث من الثمين طلب منى الخواجة « جومار » مدير تعليم الأفندية المصريين المبعوثين من طرف حضرة ولى النعمة إلى باريس كرسى الفرنسيس أن أترجم إلى العربية كتاباً لطيفاً يسمى بما معناه ديوان قلائد المفاخر .. الخ فأجبته لذلك علماً بأنه نصوح فى محبة أفندينا ولى النعم ، ومحب لبلاد مصر كأنها وطنه . . . ولما كان هذا الكتاب غير مقصور على مجرد نقل العوائد ، بل هو

= الفسموغرافية أى علم هيئة الدنيا » وأضاف اليه فى آخره قائمة بالألفاظ الاصطلاحية المستعملة فى الجغرافيا مرتبة على حروف المعجم فائدة فى كثير من الكتب التى ترجمها — وذلك كما يقول لتسهيل هذا الفن على الطالب ، وفى نهايته لوحتان بهما صور إيضاحية .

(١) ذكر Lindsay, Letters on Egypt, Edom and the Holy Land vol 2. p. 50. أن أقدم كتاب طبعه الباشا هو الأطلس العربى الذى نقل عن نسخة طبعتها الارسالية اليسوعية فى جزيرة مالطة .

مشتملى على استحسان واستصلاح بعضها أشار على مدير التعليم المذكور أن أحذف ما يذكره مؤلف الكتاب من الحط والتشنيع على بعض العوائد الإسلامية ، أو مما لا ثمرة لذكره فى هذا الكتاب .. الخ .

وقد ذكر رفاعة فى خاتمة الكتاب أنه أتم ترجمته فى يوم الاثنين من العشر الأوائل من جمادى الآخرة سنة ١٢٤٥ — أى وهو فى باريس — ، وأنه تم طبعاً فى بولاق فى غرة شعبان سنة ١٢٤٩ [1] .

ولم يذكر رفاعة — فى المقدمة أو الخاتمة — اسم مؤلف الكتاب ، وقد رجح مسيو بيانكى Bainchi أنه من تأليف Depping فقد قال عند ذكر هذا الكتاب فى قائمته Ceci est, je pense, l'ouvrage de Depping, intitulé : "Mœurs et usage des nations."

وقد أكد رفاعة هذا الترجيح ، فقد أورد فى رحلته ترجمة رسالة وصلته قبيل عودته إلى مصر من المستشرق الفرنسى مسيو « رينو Reinaud » جاء فيها « . . . قد حملنى مسيو « دبنغ » أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغيرة المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، لأن مسيو « دبنغ » مؤلف هذا الكتاب ، فإذا كانت ترجمتك تطبع فى مصر ، هل يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيد اسمه لتحصيل عدة نسخ من هذا الكتاب بالشراء . . . [2] » .

وهكذا كان رفاعة بعد عودته ، كما كان قبل عودته ، دائم العمل دائب النشاط ، فقد استطاع فى السنوات الثلاث التى تلت عودته أن يراجع كتباً مترجمة فى الطب والجغرافية ، وقدم للمطبعة كتابين مما ترجم فى باريس ، أحدهما فى علم المعادن ، والثانى فى علم الاجتماع ، وترجم كتابين جديدين طبعا أيضا فى بولاق ، أولهما فى الهندسة ، وثانيهما فى الجغرافية ، واستطاع بعد هذا كله أن يوفق لفتح مدرسة صغيرة تولى وحده فيها تدريس علمى التاريخ والجغرافيا .

وفى أوائل سنة ١٢٥٠ ظهر فى مصر مرض الطاعون ، وانتشر فى القاهرة وكثير من البلدان الأخرى فطلب رفاعة أجازة وسافر إلى بلده طهطا ، ولبث هناك نحو ستة أشهر ، زار فى خلالها الأهل والأقارب ولكنه لم ينعم فى خلالها بالراحة ، بل حمل معه الجزء الأول من جغرافية ملطبرون Malte Brun وكان قد بدأ فترجم منه صفحات وهو فى باريس ، فأكمل ترجمة الجزء الأول كله ، يقول فى المقدمة ، وكان ذلك فى نحو سبعة أشهر مع تراكم غيره من الأشغال على . من ترجمة هندسة . أو طبع ما كان وقت تعريبه بين يدى ، ويتضح من مقدمة هذا الجزء أن رفاعة عرض على محمد على رغبته فى ترجمة هذا الكتاب فطلب منه الباشا أن يترجم هذا الجزء فى مدة لاتزيد عن هذه الشهور السبعة ، ولهذا بذل رفاعة الجهد كل الجهد ليفى بوعده ، وقد فعل ، وذلك قصدا لكسب رضاء ولى النعم الأكرم ، الذى أمر بترجمته فى نحو هذا الزمن

---

(١) ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) تخليص الابريز ، ص ١٨٥ .

وختم،[1] وقد عاونه فى تبييض الكتاب وتحريره أثناء الترجمة الشيخ محمد هدهد الطنتدائى، وقام بواجبات هذه الوظيفة وزيادة من غير ارتياب ؛ وربما تصرف بعد مشاورتى فى بعض عبارات ، وأشار على بتغيير مايظن أنه يعسر فهمه ، على من لم يسبق له فى هذا الفن علمه ، فأجبته حيث قام عندى على صحة ذلك إمارات .» إلخ[2]

تقدم رفاعة بهذا الجزء من الجغرافيا العمومية إلى محمد على، فحاز الكتاب القبول وحاز رفاعة الرضاء فقد كان محمد على معنيا منذ بدأت حرب الشام الأولى بالكتب والمصورات الجغرافية ، يريد أن يعرف — وهو يبنى ملكه الجديد — أين هو من الشرق القديم المنحل ، وأين هو من الغرب الجديد الناهض ، وفى الوثائق المعاصرة شواهد كثيرة على هذه العناية . فقد كتب سامى بك إلى الديوان الخديوى فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨ يخبره برغبة الجناب العالى فى الاطلاع على خرائط الشام والأناضول، وبوجوب استدعاء أرتين افندى للتفتيش على هذه الخرائط فى خزينة الأمتعة ، أو فى خزينة القصر العينى ، أو فى أى محل آخر[3] .

وبعد عشرة أيام من هذا الخطاب (٢٢ جمادى الأولى) صدر أمر من محمد على إلى حبيب افندى أحمد يخبره فيه إلى أنه سبق أن طلب منه « خرائط رسم عن بر الشام والأناضول ، وأنه علم مما ورد منه عدم وجود ذلك » . وأشار فى هذا الأمر إلى أنه متذكر وجود أطلس فلدنك ، وآخر فرنساوى به رسم جميع الكرة الأرضية ، فيجرى البحث عن هذين الكتابين بخزينة الأمتعة أو بمحل وجودهما . وارسالها لطرفه متى وجدت[4] » .

وفى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٤٨ كتب ابراهيم باشا إلى سامى بك يأمره « بوجوب ترجمة الجغرافيتين البرية والبحرية بمعرفة استيفان افندى وأرتين افندى ، وبوجوب حفر الخرائط اللازمة بمعرفة الشيخ أحمد العطار الذى عاد من باريز[5] » .

---

(١) الجغرافيا العمومية للطبرون ، ترجمة رفاعه ، ج ١ ، ص ٢ ، وقد سأل مسيو « برنو » الشيخ رفاعه — فى خطابه اليه قبل عودته من باريس — ابن وصل فى ترجمة الجزء الأول ، وذكر له أن هذا الكتاب يطبع طبعة جديدة فيها زيادات ، أنظر تخليص الابريز ، ص ١٨٥ ، وقد أشير فى الطبعة السادسة من الأصل الفرنسى لهذا الكتاب إلى ترجمة رفاعه ، فقد ورد فى ص ٩ هامش واحد مايلى

"Depuis que nous avons terminé le précis, des traductions en ont été publiée dans plusieurs pays, entre autres une en anglais, à Edinbourg, et une en arabe au Caire." Voir ; Malte-Brun, Géographie Universelle 6 eme, édition, t.I. Paris 1853.

(٢) الجغرافية العمومية ، ج ١ ، ص ٢ — ٣ .

(٣) عابدين ، خديوى تركى ، دفتر ٧٧٨ ، رقم ١٩٩ و ٢٠٣ (أنظر أسد رستم ، بيان بوثائق الشام ، ج ٢ ، ص ١٣٤) .

(٤) تقويم النيل ، ج ٣ ، ص ٤٠٧ .

(٥) عابدين ، محفظة ٢٤٥ ، رقم ٧٣ (أنظر أسد رستم ، بيان بوثائق الشام ، ج ٢ ص ٢٩٥) .

وفى ٥ ذى الحجة سنة ١٢٤٩ صدر أمر من محمد على إلى وكيل الجهادية بطبع ألف نسخة من كتاب التعريبات الجغرافية ، وكذلك ألف نسخة من الأطلس بعد اتمام ترجمته بمعرفة المذكور لما فى هذين الكتابين من المنفعة الكلية [١] .

وفى غرة ذى القعدة سنة ١٢٥٠ ، أرسلت إلى بوغوص بك إفادة سنية ، تقضى بتقديم خريطة نهر الفرات ونواحيه إلى المقر العالى [٢] .

كانت الفرصة سانحة إذن — ومحمد على معنى هذه العناية بالدراسات والرسوم الجغرافية — أن يتقدم إليه رفاعة باقتراحه الجديد لتحقيق أمنيته القديمة . كان ذلك الاقتراح يتلخص فى أن يؤذن لرفاعة بافتتاح مدرسة للترجمة تعلم فيها الألسن الشرقية والغربية ، وبعض المواد المساعدة كالتاريخ والجغرافية والرياضة ، ليقوم خريجوها بترجمة الكتب فى العلوم المختلفة .

ووافق محمد على وأنشئت المدرسة فى أوائل سنة ١٢٥٠ ، وكان عدد تلاميذها وقت إنشائها خمسين تلميذاً ، تولى رفاعة اختيارهم بنفسه من مكاتب الأقاليم ، ثم زاد هذا العدد إلى ٨٠ ، ثم إلى مائة وخمسين ونقص فى سنة ١٨٤١ إلى ٦٠ تلميذاً ، ويقول الدكتور عزت عبد الكريم « وظلت مدرسة الألسن محتفظة بنحو هذا العدد حتى نهاية عصر محمد على [٣] .

وفى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) اكتملت المدرسة فأصبحت تتكون من ٥ فرق ، وخرجت الدفعة الأولى ، وبدأ تلاميذها وخريجوها يترجمون الكتب فى العلوم المختلفة .

وفى سنة ١٢٥٨ (١٨٤١) أنشىء قلم الترجمة ملحقاً بمدرسة الألسن وتحت إشراف رفاعة .

ستة عشر عاماً ظل فيها رفاعة ناظراً للألسن ، ومدرساً بها ، ومديراً لها ، ومشرفاً على قلم الترجمة ، ومصححاً لجميع الكتب التى ترجمها تلاميذه مما سنوضحه عند كلامنا عن المترجمين من خريجى الألسن .

ومع هذا فقد كان يلجأ إليه المترجمون من أعضاء البعثات فى المدارس الخصوصية الأخرى لمراجعة ما يترجمون من كتب ، فقام — وهو يدير الألسن — بمراجعة وتصحيح كتب مختلفة فى الطب والجغرافية ، والرياضيات .

فى سنة ١٢٥٢ (١٨٣٧) ترجم محمد أفندى عبد الفتاح كتاب « تحفة القلم فى أمراض القدم » (طب بيطرى) وقابله على أصله الفرنسى العمدة الفاضل « والحجة الكامل ، من لا ينازعه فى الفصاحة منازع ، حضرة رفاعة أفندى رافع » ، وفى سنة ١٢٥٧ ترجم نفس المترجم كتاب « نزهة المحافل فى معرفة المفاصل ،

---

(١) تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

(٢) معية تركى ، دفتر ٥٩ ، رقم ٣٩٨ (انظر رستم ، بيان بوثائق الشام ، ج ٢ ، ص ٥٠٤) .

(٣) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٣٣٢ .

« وبعد أن قام على تصحيحه الشيخ مصطفى كساب ، قابله على أصله الفرنساوى قدوة الأفاضل ، وعدة الأماثل ، اللوذعى البارع ، رفاعة أفندى رافع » .

ولما عاد السيد أحمد الرشيدى من بعثته الطبية عهد إليه ديوان المدارس بترجمة كتاب « الدراسة الأولية فى الجغرافيا الطبيعية » ، ومع امتيازه فى الترجمة ، وحذقه للغة العربية رأى ألا يقدم الكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن يراجعه مدرس الجغرافيا ، ومترجم كتبها رفاعة أفندى ، يقول الرشيدى فى خاتمة كتابه « ولما كمل حسب الطاقة تصحيحا ، وتم تهذيباً وتنقيحا ، رأيته يحتوى على أسماء بلاد كثيرة وأنهار ، ونحو ذلك ، لست فى ترجمتها إلى العربية قوى البضاعة ، لأنى وإن كنت درست أصول الجغرافيا بالأوروبا إلا أنى لم اتخذها صناعة ، فجزمت أن لا مرد لها إلا العمدة الفاضل والسيد الكامل ، الحاذق اللبيب ، والنحرير النجيب رفاعة أفندى معلم الجغرافيا الطبيعية ، ومن له فى هذا الفن التآليف والتراجم البهية ، فأعرضت (كذا) للديوان أن لابد من مقابلته مع هذا الهمام ، فأجبت لذلك وبلغت من سؤالى المرام . وقابلته معه على أصله مع غاية الانتباه والاتقان ... إلخ [١] . وقد طبع هذا الكتاب فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٤ .

وفى سنة ١٢٥٧ ترجم أحمد أفندى فايد المدرس بالمهندسخانة كتاب « الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية » ، وقام على تصحيحه الشيخ ابراهيم الدسوقى ، ثم « قوبلت ترجمته بأصله على حسب الاقتدار على يد مصطفى بهجت أفندى ، ورفاعة أفندى بأمر المختص من المعارف بالنفائس ، سعادة أدهم بك مدير ديوان عموم المدارس » [٢] .

وفى هذه الفترة أيضاً — فى سنة ١٢٥٧ — عهد إلى رفاعة بتنظيم صحيفة الوقائع المصرية والإشراف على تحريرها ، فأحدث فيها تغييرات جمة ، وخطا بها وبتحريرها خطوات واسعات ، فى تلك السنة اجتمعت لجنة مكونة من « سعادة مدير المدارس والبيك الترجمان وكاتى بك ، ومحمود بك مدير الإيرادات وغيرهم » وذلك للنظر — تنفيذاً لرغبة الجناب العالى فى « وضع خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل كما هو الحال فى الممالك الأخرى » [٣] ، ورأت اللجنة بعد اجتماعها فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ (١١ يناير ١٨٤٢) أن الغرض من طبع الوقائع إنما هو لنشر الأخبار الحديثة على الناس حتى يستفيد منها كل إنسان ، ولا يجب الاكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب ، وقد أصبح من اللازم إضافة بند للحوادث الخارجية فى الجريدة حتى يتقبلها الناس برغبة وشوق . . وحيث أن نشر مثل هذه الأخبار يتوقف على

---

(١) ص ٢٢٦ .

(٢) ص ٤ .

(٣) عابدين ، وثيقة رقم ٦٠ ، دفتر رقم ٢٨٦ . شورى للداوة ، تاريخ غرة صفر ١٢٥٨ .

قراءة الجرائد التى تنشر فى الخارج ويستوجب أن يكون الموظف المشرف على ترتيب الجريدة وتنظيمها ملماً باللغتين ، وعلى ذلك فقد تقرر إحالة أعمال ترجمة المواد المناسبة من الجرائد وعلاوة بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية وانتخاب أخبار الملكية وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعى أفندى ناظر مدرسة الألسن ، لوجود مترجمين جاهزين فى هذه المدرسة . . . وحيث أن حضرة الشيخ رفاعى سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية فتحال أعمال إفراغ الترجمة فى قالب حسن بدون الإخلال بالأصل العربى وتنظيم المواد حسب النظام التركى على حضرة حسين أفندى ناظر المطبعة العامرة ، وحيث أن الحوادث الأجنبية معتاد تقديمها إلى الجناب العالى بعد ترجمتها إلى اللغة التركية فيكلف البك المترجم بانتخاب المناسب منها ، وإرسال صورها إلى ديوان المـــدارس ، فبهذه الطريقة يمكن نشر الجريدة أسبوعياً»[١].

وهكذا عهد إلى رفاعة تنفيذاً لهذا القرار الصادر فى ٢٧ ذى القعدة [٢] سنة ١٢٥٧ أعمال ترجمة المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية وعلاوة بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار الملكية وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة ، وقد قام رفاعة بهذا العمل الجديد خير قيام ، وطبع الوقائع فى عهد تحريره لها بطابع جديد مستعيناً فى هذا بخبرة طويلة ، وثقافة فرنسية وعربية واسعة ، قدر هذا التأثير الجديد ، وهذه الجهود الفذة الدكتور ابراهيم عبده فى كتابه عن تاريخ الوقائع المصرية فقال: « وكان لمكانة رفاعة الطهطاوى أثر كبير فى تقدير الصحيفة واعتبارها ، واحترام لغة البلاد فيها ، فإن مكان اللغة قد تبدل ، فأصبحت العربية فى الناحية اليمنى تتصدر فى الجريدة صفحاتها الأربع ، وأخذت التركية مكان اليسار [٣] » .

وقال أيضاً : (وقد استطاع رفاعة أن يفرض وجوده وشخصيته فى تحرير الجريدة بالرغم من تعيين الحكومة لأرتين بك مشرفاً على أخبارها الداخلية فيما بعد بحيث تمكن من إهماله والانتصار عليه . . . ومن أهم ما لاحظناه منذ تعيين الطهطاوى أن ناظر الوقائع أصبح فى المرتبة الثانية بالنسبة لمحررها ، وقد بذل رفاعة جهده فى رعاية الصحيفة ، وأضاف فيها ، وحورها تحويراً يليق بفهمه ، ويتصل بإدراكه ، واستعان فى ذلك بفئة من المحررين ، أهمهم أحمد فارس الشدياق ، والسيد شهاب الدين تلميذ العطار ومساعده [٤] .

---

(١) عابدين ، وثيقة رقم ٥٨٤ ، دفتر ٢٠٧٣ ، ص ٨٢ — ٨٣ ، تاريخ ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ .

(٢) ذكر صاغ مجدى ، فى حلية الزمن ص ١٥ — ١٦ أن رفاعه تولى نظارة الوقائع فى ١٢٥١ ، وأنه ظل مشرفا عليها حتى ١٢٦٧ ، والتاريخان فيما يظهر غير صحيحين لأن قرار الجنسة صدر فى ذى القعدة ١٢٥٧ ، وفى ١٢٦٧ كان رفاعه فى السودان ناظرا لمدرسة بالخرطوم .

(٣) تاريخ الوقائع المصرية ، ص ٥١ .

(٤) تاريخ الوقائع المصرية ، ص ٤٧ — ٤٩ .

على أن المظهر الهام حقاً الذى ظهرت به الوقائع فى عهدها الجديد — عهد رئاسة رفاعة لتحريرها — هو التغير الواضح فى موضوعاتها ، التى انتقلت فجأة من توافه الأخبار والحوادث ، والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر إلى موضوعات رئيسية لها خطرها لا فى الشرق وحده ، بل فى أوربا فى ذلك الوقت »[١] .

قام رفاعة بهذه الجهود الشاقة خير قيام ، وبذل لها كل وقته وتفكيره ، وكان يدفعه إلى الإخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه وازع قوى من ضميره الحى ، وحب لوطنه وبنيـــه ، وتشجيع مستمر من ولى النعم ، محمد على باشا وأولاده ، ففى سنة ١٢٦٠ أنعم على رفاعة برتبة القائمقام ، وفى ١٤ ذى الحجة ١٢٦٣ أنعم عليه برتبة أميرالاى [٢] لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون [٣] ، وبهذا الانعام الأخير أصبح يدعى رفاعة بك ، بعد أن كان يدعى فيما مضى بالشيخ رفاعة ، ورفاعة افندى .

وقد أنعم عليه محمد على بمائتين وخمسين فداناً ، وأقطعه ابراهيم باشا « حديقة نادرة المثال فى الخانقاه تبلغ ستة وثلاثين فداناً »[٤] ، وأنعم عليه سعيد باشا بمائتى فدان ، واسماعيل باشا بمائتين وخمسين فداناً .

وفى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ (١٠ نوفمبر ١٨٤٨) توفى ابراهيم باشا ، وفى ٢٧ من نفس الشهر تولى عرش مصر عباس باشا الأول ، وكان محمد على لايزال حياً يعانى من مرضه الأخير ، فلم يحرؤ عباس على

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥١ ، وانظر لتفسير هذا القول افتتاحية العدد ٦٢٣ من الوقائع المصرية تاريخ غرة ربيع آخر سنة ١٢٥٨ بعنوان « تمهيد » نقد بدأها بتفسير القول المعروف « الناس على دين ملوكهم » فى العصور الخالية ، ثم ذكر أن الناس فى عصره كانوا يتحدثون دائما عن الأخبار الداخلية والخارجية ، « وهذا ما يسمى بالبوليتيقة ، والمتكلم فى شأن ذلك يقال له بوليتيقى ، فما كان بين الدول والملل يقال له « بولوتيقة خارجية » ، وما كان فى دولة واحـدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بولوتيقة داخلية ، والعالم أى « الغازيتات » والوقائع هى التى تتكلم عن كل من البوليتيقا الداخلية والخارجية . . الخ » .

(٢) تقويم النيل ، ج ٣ ، ص ٥٤١ ، وقد ذكر الرافعى خطأ فى عصر محمد على ، ص ٤٨٧ أنه أنعم عليه بهذه الرتبة فى سنة ١٢٦٣ .

(٣) هو الجزء الثالث ، ولم يطبع من هذا الكتاب إلا الجزءان الأول والثالث ، وقد يكون تفسير هذا ان الحاجة لم تكن ماسة لترجمة الجزء الثانى الخاص بأوربا ، اما الجزء الثالث الخاص بجغرافية آسيا فقد كان ضروريا ، فى ربوع الشام ، وآسيا الصغرى ، وبلاد العرب — وكلها أقاليم آسيوية — كانت حروب محمد على ، واليها كانت تنتهى آماله . والعجيب أنه لم يذكر بهذين الجزئين تاريخ طبعهما ، وانما ذكر فى مقدمة الجزء الأول ، وخاتمة الجزء الثالث أنهما من ترجمة رفاعة بك « ناظر مدرسة الألسن وقلم ترجمة » مما يجعلنى أرجح أن الأول طبع بعد سنة ١٢٥٨ ، وهى السنة التى أنشىء فيهـا قلم الترجمة ، والثالث بعد ١٢٦٣ وهى السنة التى أنعم عليه فيها برتبة أميرالاى بمناسبة ترجمته هذا الجزء ، ونحب أن نشير هنا الى أنه ليس صحيحا ما ذكره زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٥٧ ، من أن رفاعة ترجم من هذا الكتاب « أربعة أجـزاء طبعت فى بولاق » وقد ذكر عزت عبد الكريم فى كتابه « تاريخ التعليم فى عصر اسماعيل » المجلد الأول ، ص ١٤٧ ، أنه طلب من رفاعة بك أن يسرع قلم الترجمة (الذى كان يتولى نظارته فى عهد اسماعيل) فى اتمام ترجمة جغرافية « ملطبرون » التى أصدر رفاعة بعض أجزائها فى مصر محمد على ، فشكا القلم من قلة عدد المترجمين .

(٤) على مبارك « الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .

تغيير ما يريد تغييره من الأوضاع القديمة ، وفى ١٢ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ أغسطس ١٨٤٩) انتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى ، فاستقل عباس بالأمر .

ولم يكن عباس كجده وعمه ، بل لعله كان على النقيض منهما ، ولهذا يكاد يجمع مؤرخو عصره على وصفه بالجمود والرجعية ، فالرافعى يرى أنه كان « قبل ولايته الحكم ، وبعد أن تولاه خلوا من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة . . وبالجملة فلم تكن له ميزة تلفت الأنظار سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكا كبيراً ، فصار اليه هذا الملك دون أن تؤول اليه مواهب مؤسسه ، فكان شأنه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره ، وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا » (١) .

ويرى المؤرخ الايطالى « ساماركو : Sammarco » ، أن أظهر ماتتسم به حكومة « عباس عداؤه الوحشى للحضارة الأوربية ، وكرهه العنيف لجميع الأعمال التى كونت مجد جده ، والتى بذل هو كل الجهد فى تحطيمها شيئاً فشيئاً » . (٢)

ويرى الدكتور عزت عبد الكريم أن عباساً « أظهر منذ تولى الحكم فى مصر أنه لن يكون الحاكم الذى يتابع سياسة جده ، ويحنو على مؤسساته ، ويؤيد نظمه (٣) . وأن سيرته فى الاصلاح الداخلى كانت فشلا متصلا ، ولا يشفع له فى ذلك أن حكمه كان قصيراً » . (٤)

والسبب الأساسى لهذا كله فى نظره يرجع إلى أن « سياسة عباس قامت على تسفيه الجهود التى بذلها محمد على وابراهيم فى ميدان الاصلاح الداخلى ، والسياسة التى اعتقد أنهما كانا يتمسكان بها ، ويدعوان اليها فى تقرير علاقات مصر بالدولة العثمانية ، والدول الأوروبية » (٥)

فإذا فهمنا سياسة عباس الأول على هذا الأساس لم يكن من العسير اذن أن نفهم لم أقفلت معظم المدارس الخصوصية فى أول عهده ، وكانت مدرسة الألسن أول مدرسة ألغيت ، وذلك أن مؤسسها وناظرها كان من المقربين لمحمد على وابراهيم الحائزين لثقتهما ، لهذا نشأ بين عباس ورفاعة نوع من الكراهية وسوء التفاهم . لم يوضح رفاعه نفسه ، ولم يوضح المؤرخون المعاصرون أسبابه الحقيقية مما دعا المؤرخين المحدثين إلى أن يذهبوا فى تفسيره مذاهب شتى ، فالأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك يرى أن لكتاب رفاعة « تخليص الابريز » سبباً يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى أنه طبع المرة الثانية سنة ١٢٦٥ ، أى فى أوائل عهد عباس باشا ، والكتاب . . يحوى آراء ومبادىء لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، وعباس باشا الأول كان فى

---

(١) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٩ — ١٠ ، وانظر أيضا ص ١٥ .

(٢) Sammarco, Précis de l'histoire d'Egypte, . IV, p. 4.

(٣) و (٤) و (٥) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد ، ص ٥ و ٦ ؛ وانظر أيضا Dunne, An Introduction to the History of Education in Egypt, p. 28 هذا ولم يدافع عن سياسة عباس التعليمية ، وخاصة نحو البعثات إلا المغفور له الأمير عمر طوسون فى كتابه عن هذا الموضوع ، ص ٤١٦ — ٤١٨ .

طبعه مستبداً غشوما ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى كتاب رفاعة بك مما لا يروق لعباس ، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له ، ولا غرابة فى ذلك ، فلو أن هذا الكتاب ظهر فى تركيا على عهد السلطان عبد الحميد لكان من المحقق أن يكون سبباً فى هلاك صاحبه ، فمن الجائز أن يكون عباس باشا قد رأى نفى رفاعة . وأمثال رفاعة إلى السودان ، ليبعدهم ، ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر . واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهى إنشاء مدرسة بالخرطوم » . (١)

أما الدكتور عزت عبد الكريم فيرى أن هناك احتمالين لابعاد رفاعة إلى السودان ، أولها سعى على مبارك ، الذى عاد من أوربا مليئا بالاطماع والذى كان يحقد على رفاعة لما أصاب من مكانة ، وقد قرب عباس اليه على مبارك وأبعد رفاعة إلى السودان ، فلما خلفه سعيد قرب اليه رفاعة ، وأبعد على مبارك إلى القرم (٢) والثانى ما يحتمل أن يكون رفاعة قد لقيه من معارضة بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه (٣) .

وهذه كلها تفسيرات احتمالية أو اجتهادية تفتقر إلى سند تاريخى مادى ، وأصدق منها — فى نظرى — ما ذكره رفاعة نفسه من أنه سافر إلى السودان « بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم (٤) وإن كان لم يذكر أسماء هؤلاء الأمراء ، أو ماهية الوشاية التى وشوا بها ضده .

غير أنه عاد فأشار اليهم واليها فى إيضاح مستتر فى قصيدة نظمها وهو فى السودان مستغيثا بما هو فيه بحسن باشا — كتخدا مصر — قال فيها :

وما خلت العزيز يريد ذلى ... ولا يصغى لأخصام لداد
لديه سعوا بألسنة حداد ... فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى
وزخرف قولهم إذ موهوه ... على تزييفه نادى المنادى
فهل من صيرف المعنى بصير ... صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيم ... بمصر فالنتيجة فى بعادى (٥) الخ

ويقول الأستاذ أحمد أمين بك ، « وكان الشيخ ماكرا فقد وضع القصيدة على وزن وقافية ،

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى (٦)

---

(١) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ٤٨٩ — ٤٩٠ .
(٢) و (٣) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٣) مناهج الألباب المصرية ، ص ٢٦٥ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(٦) الثقافة ، العدد ٢٣٤ .

ومهما تكن الأسباب الحقيقية فان عباسا قد أوعز فى شهر رجب سنة ١٢٦٦ إلى المجلس المخصوص برغبته ، واقترح هذا المجلس أن تؤسس مدرسة بالاقاليم السودانية إنقاذا لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها من جحيم الجهل ، وأن يقوم على تأسيسها ونظارتها رفاعة بك ، وأن يشترك معه فى التدريس علم من أعلام النهضة العلمية التعليمية فى عصر محمد على وهو محمد افندى بيومى أستاذ الرياضيات فى المهندسخانة ورئيس أحد أقلام غرفة الترجمة ، وأنه من الجميل حقا أن نسجل لحكومة عباس أنها أول من فكرت فى إنشاء مدرسة مصرية فى ربوع السودان ، لو أنه كان خالص النية ، صادق الرغبة فى خدمة السودان وأبنائه ، ولكنه لم يكن كذلك ، وإلا فان إنشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم لم يكن يستلزم أن يشرف عليها ، ويقوم بالتدريس فيها كبيرا رجال النهضة العلمية فى مصر ، رفاعة وبيومى ، ومع هذا فان قرار المجلس المخصوص أخفى الاسباب الحقيقية ، وأظهر لنا الغرض من إنشاء المدرسة فى صورة أخاذة براقة فقد ذكر فى هذا القرار أنه « لما كانت الاقاليم السودانية من البلاد الجسيمة ، ولما لم يكن قد أنشئت فى تلك الديار المتسعة مدرسة يربى فيها أولاد مشايخها ، وغيرهم من أهلها ، وأولاد الأتراك الذين ذهبوا إلى تلك الديار ، وتوطنوا بها منذ أعوام خلت ، وكذلك أحفادهم ليتعلموا فيها الفنون والقراءة والكتابة فيزدادوا ثقافة وفطنة . ولما كان المجلس المخصوص قد تشاور فى جلسته التى عقدها أخيراً ، فقرر أمر إنشاء مدرسة بتلك البلاد بغية إنقاذ أولادها من ظلمات الجهل ، وتنويرهم بأنوار المعارف بمقتضى مراحم الذات الخديوية ، والمكارم السنية التى شملت جميع الرعايا والبرايا ، قد قر الرأى أن تفتح هذه المدرسة فى عاصمة الخرطوم ، وأن يكون نظامها موافقا لاصول المدارس المصرية ، وعلى نمط ترتيب مدرستى المبتديان والتجهيزية ، وأن يقبل ويسجل فيها نحو مائتين وخمسين غلاما من المشايخ ، والأهلين القاطنين بدنقلة ، والخرطوم ، وسنار ، وتاكه وملحقاتها ، وكذلك من أولاد الاتراك الذين توطنوا بتلك الديار ، وأحفادهم هذا ويولى عليها ناظر ملم بأصول المدارس ، ليتمكن من ترتيبها كما ينبغى ، وتنظيمها على أحسن وجه ، فاستحسن المجلس اختيار أمير الآلاى رفاعة بك الذى بديوان المدارس ناظرا للمدرسة المذكورة وإرساله إلى تلك الديار ، وانتخاب المعلمين الذين تحتاج اليهم تلك المدرسة برأى البك المشار اليه » الخ[1]

قضى رفاعة فى السودان نحو ثلاث سنوات قاسى فيها الأمرين ، لا كرهاً فى السودان . فهو القائل على لسان مصر والسودان .

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـــد جميعا فى الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منك ومـــنى غرة كوكبية الانفـــلاق

(١) عابدين ، دفتر رقم ١٩٥٨ ، قرارات المجلس المخصوص ، المكاتبة التركية رقم ٤ ، ص ١١٩ ، بتاريخ ١٠ رجب ١٢٦٦ أنظر تفصيل الحديث عن هذه المدرسة فى : « أول مدرسة مصرية فى السودان » للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد ، الثقافة ، العددان ، ٢٢٤ و ٢٢٥ .

إنما آلمه فى السودان شعوره بانه منفى ، وتألمه لما أصاب معظم زملائه من مرض ووفاة ، وخاصة بيوى أفندى صديقه فى باريس ومصر ، ووفيه فى الجهاد العلمى ، وصاحبه فى السراء والضراء ؛ يؤيد هذا قوله فى قصيدته السابق الاشارة اليها .

وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبس الحداد[١]

ومع ذلك فقد تذرع هناك بالصبر والإيمان ، وقام بواجبه فى مدرسة الخرطوم خير قيام وتخرج على يديه بعض أبناء مصر والسودان ، وقد بث شكواه فى قصائد كثيرة تعد من أجمل ما قال من شعر ، ولم ينس أخيرا عمله الذى أحبه وأخلص له ، وهو الترجمة ، فشغل وقت فراغه بترجمة قصة « تليماك »[٢] ، وقد أشار فى مقدمتها إلى ماكان يحس — وهو فى منفاه — من ألم ممض ، وكيف استعان على تحمل هذا الألم باشتغاله بترجمة هذا الكتاب، قال « وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس فيما قضاه الله مفر أقمت برهة خامد الهمة ، جامد القريحة فى هذه المملة ، حتى كاد يتلفنى سعير الاقليم الفائر بحره وسمومه ، ويبلغنى فيل السودان الكاسر بخرطومه . فما تسليت إلا بتعريب « تليماك »وتقريب الرجاء بدور الأفلاك .

هذا هو مجهود رفاعة فى الترجمة حتى عهد إقامته فى السودان ، وله مجهود آخر فى نفس الميدان[٣] وفى ميادين علمية أخرى بعد عودته فى عهدى سعيد واسماعيل ، لا نرى المجال هنا مناسباً للحديث عنها لخروجه عن موضوع بحثنا الذى جعلنا حدوده آخر عهد محمد على باشا .

غير أننا لا نستطيع أن نختم هذا الموضوع دون أن نشير إلى نقطة أخيرة تحتاج إلى المناقشة . وذلك أننا أحصينا فيما سبق جهود رفاعة فى الترجمة ، غير أنه أشار فى بعض شعره الذى قاله فى السودان إلى أنه ترجم عن « مونتسكيو » فقال :

على عدد التواتر معرباتى تفى بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل ومنتسكو يقر بلا تمادى[٤]

فهذه إشارة واضحة ، أكدها بعد وفاته الشيخ محمود كشك الطهطاوى ، الذى أشرف على تصحيح الطبعة الثانية من كتاب « مناهج الألباب » ، فقد أشار فى آخره بجهد محمد بك رفاعة (حفيد رفاعة بك) وسعيه لنشر هذا الكتاب ، وأشار إلى أن همته لم تقف عند انجاز طبع هذا الأثر ، بل عزم حضرته على

(١) مناهج الألباب ، ص ٢٦٧ .
(٢) طبع هذا الكتاب فيما بعد أحد تلاميذ رفاعة بعنوان « مواقع الافلاك فى وقائع تليماك » فى بيروت (بدون تاريخ)
(٣) أنظر تفصيل هذه الجهود فى: عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، فى عصر اسماعيل المجلد الأول ، ص ١٤٠ — ١٥٥
(٤) مناهج الألباب ، ص ٢٦٦ .

إحياء باقى الكتب التى ترجماجده عن الفرنساوية إلى العربية : كرواية « تلماك » الشهيرة وترجمة «ملطبرون» وترجمة « منتسكو » وغير ذلك . . الخ

وأورد بعد ذلك صورة خطاب كتبه الشيخ عبدالكريم سلمان إلى حفيد رفاعة بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ ، قال فيه « فاجعل كتابى هذا غير قاصر على تقريظ عملك الجديد المفيد ، ومده إلى إيجاد ذينك السفرين (ترجمة ملطبرون وترجمة مونتسكيو)

ولقد رويت عن عمك الأعز رحمه الله أن والده الأكرم أكرم الله مثواه ترجمهما ، وإن نسختهما موجودة ، وأسمعنى ما بقيت حافظه إلى الآن مما يبرهن على أنه طيب الله ثراه ترجمهما ، وهو :

وملطبرون يشهد وهو حبر ومنتسكو يقول ولا يمسارى

وعلق على هذا الخطاب بقوله « ونحن نزف البشرى إلى الجمهور بوجود أصول هذين الكتابين فى خزانة كتب المؤلف ، وتعويل حضرة حفيده الأكرم على طبعهما إجابة لطلب فضيلة الأستاذ ، وحبا فى تعميم النفع لأبناء العصر »[1]

وغاية مانستطيع أن نقول أننا رجعنا إلى ثبت ماترجم رفاعة من كتب فى عهدى محمد على واسماعيل فلم نجد من بينها كتاباً لمونتسكيو ، وكل ما نعرفه أنه قرأ كتبه وهو فى باريس . وتأثر بها كثيرا فى بعض كتبه ، وخاصة كتاب « مناهج الألباب المصرية » ، فهو متأثر فيه بكتاب مونتسكيو « روح الشرائع » ، كذلك لم يترجم تلاميذه فى مدرسة الألسن من كتب « مونتسكيو » إلا كتاب (برهان البيان وبيان البرهان فى استكمال واختلال دولة الرومان) . فقد ترجمه حسن افندى الجبيلى ، وكانت الترجمة تحت اشراف رفاعة ، فقد قال المترجم فى مقدمته : (ولم أغفل عن مراجعة الفاضل اللبيب ، والكامل الأريب ، الدقيق فهمه ، الكثير علمه ، سيدى رفاعة افندى فى حل بعض مشكلاته ، وفك ماعسر على فهمه من معضلاته » .

ولم ينته من ترجمته إلا فى الثانى عشر من ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ بعيد وفاة أستاذه رفاعة ، وتم طبع الكتاب بعد ثلاث سنوات فى ذى العقدة سنة ١٢٩٣ .

لم يبق اذن إلا أن يكون رفاعة قد ترجم حقاً بعض كتب (مونتسكيو) ، وأجزاء أخرى من جغرافية (ملطبرون) — غير التى طبعت — وأن مسودات هذه الكتب ماتزال مخطوطة فى مكتبته .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

٣ ـ المترجمون من خريجى الألسن

أغراض المدرسة ، عدد الخريجين ، عدد الكتب المترجمة ، طريقة رفاعة فى التدريس بالمدرسة ، وفرة الانتاج وتنوعه ، اشراف رفاعة على مراجعة الكتب المترجمة ، اشتراك بعض المصححين معه ، اختيار الكتب التى تترجم ، عناية رفاعة بالكتب التاريخية ، مشروعه لترجمة مكتبة فى عصور التاريخ المختلفة ، كتب فى السير والتراجم ، الحديث عن اثنين من خريجى الألسن ، أبو السعود افندى ، ترجمة موجزة له صالح مجدى بك ، ترجمته ، جهوده فى الترجمة ، أثر رفاعة فى الرجلين وعلاقتهما به

كانت مدرسة الألسن منذ إنشائها ترمى إلى تحقيق غرضين اثنين :

(ا) اعداد مترجمين فى مختلف الفنون والعلوم .

(ب) اعداد مدرسين للغة الفرنسية فى المدارس التجهيزية والخصوصية .

وقد حققت المدرسة هذين الغرضين بهمة رفاعة التى لاتعرف الملل ، وجهده المتصل ، وملأت مصر والمدارس بالمترجمين والمدرسين ، وقد ذكر صالح مجدى بك فى كتابه (حلية الزمن) أسماء النابهين الذين نبغوا من تلاميذ رفاعة فى مدرسة الألسن ، وعدة هؤلاء سبعةوستون ، وذكر المستر (دن) [1] إن المدرسة خرجت فى مدى عشر سنوات نحو سبعين مترجماً . ويبدو لى أن خريجى الألسن منذ سنة ١٢٥٥ (وهى السنة التى تخرجت فيها الدفعة الأولى) إلى سنة ١٢٦٥ (وهى السنة التى توفى فيها محمد على) كانوا يبلغون نحو المائة ، فقد ذكر أبو السعود افندى أحد خريجى المدرسة وتلاميذ رفاعة ، أن المدرسة كان (يخرج منها كل عام عشرة) [2] .

وقد قدر خريج آخر من خريجى المدرسة ــ محمد قدرى باشا ــ [3] الكتب التى ترجمها خريجو الألسن ــ ما طبع منها وما لم يطبع ــ بنحو الفى كتاب .

ومهما كان عدد الخريجين ، أو عدد الكتب التى ترجمت ، فقد أشاع رفاعة فى هذا الرعيل قبساً من روحه . ونفحة من نشاطه ، فكانوا أركان النهضة فى عهد محمد على . ثم كانوا القائمين على إحيائها . والإشراف عليها فى عهد اسماعيل ، وقد أجمل رفاعة القول فى جهده وجهودهم فى مقدمته لقصة تليماك ، قال : (قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية ، الفائقة على سائر الأمصار ، فى عصر المدة المحمدية العلوية السامى على سائر الأعصار ، بوظيفه تربية التلاميذ مدة مديدة ، وسنين عديدة ، نظارة وتعليما ، وتعديلا وتقويماً ، وترتيباً وتنظيما ، وتخرج من نظارات تعليمى من المتفنين رجال لهم فى مضمار السبق ، وميدان

(١) Dunne. Printing and Translations etc. p. 346

(٢) أبو السعود ، منحة أهل العصر . . الخ ، ص ٥٩ .

(٣) قدرى باشا ، معلومات جغرافية.

المعارف وسيع مجال ، وفى صناعة النثر والنظم أبهر بديعة وأبهى روية وأزهى ارتجال ، وحماة صفوف لا يبارون فى نضال ولا سجال ، وعربت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمة ، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة ، من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها ، ومالت طباع الجميع إلى مطبوع ذوقها وطبعها ، وسارت بها الركبان فى سائر البلدان ، وحدا بها الحادى ، فى كل واد ، وقصدها القصاد كأنها قصائد حسان ، وكان زمنى إلى ذلك مصروفا ، وديدنى بذلك معروفا ، مجاراة لأمير الزمن (يقصد محمد على) ، على تحسين حال الوطن ، الذى حبه من شعب الإيمان . . . الخ .

ووصف على مبارك خريجى الألسن بأنهم كانوا « جميعهم فى الانشاءات نظما ونثرا أطروقة مصرهم ، وتحفة عصرهم »[1] .

وقد أخذ رفاعة تلاميذه فى الألسن بما أخذ هو به نفسه — وهو يتلقى العلم فى باريس — أى أنه أخذهم أولا — بالجد والنشاط فى التحصيل منذ اللحظة الأولى فكان « لا يقف . . فى اليوم والليلة على وقت محدود . وربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء ، أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية ، والقوانين الأجنبية » . الخ[2] ، وبهذا استطاع أن يعهد لبعض النابغين من تلاميذه بترجمة الكتب فى السنوات الأولى من إنشاء المدرسة ومن عجب ، أن نرى بعض الكتب قد ترجمت وطبعت قبل أن تخرج المدرسة دفعتها الأولى ، ففى سنة ١٢٥٢ — أى بعد إنشاء المدرسة بسنة واحدة — ظهر كتاب تاريخ الفلاسفة اليونانيين مترجما بقلم عبد الله افندى حسين الذى يقول فى مقدمته « وكنت وقت ترجمته بمدرسة الألسنة بالأزبكية » أى كان لا يزال تلميذا بها .

وبعد نحو ٣ سنوات من إنشاء المدرسة (١٢٥٤) أخرجت كتابين آخرين وهما « تنوير المشرق بعلم المنطق » ترجمة خليفة محمود ، « وبداية القدماء وهداية الحكماء » وقد اشترك فى ترجمته مصطفى الزرابى ومحمد عبد الرازق وأبو السعود ، وهم جميعا من تلاميذ المدرسة .

ثانيا — وأخذ رفاعة تلاميذه أيضا — بما أخذ به نفسه من قبل — من إقبال على الترجمة فى مختلف العلوم والفنون . فلم تعرف المدرسة ولم يعرف خريجوها « التخصص »[3] فى ترجمة علم بعينه ، وإنما كان يفرغ أحدهم من ترجمة كتاب فى التاريخ فيعهد اليه بترجمة أخر فى الطب . ثم ثالث فى الكيمياء ، أو فى الجغرافيا ، وهكذا ، ولكننا نلاحظ أن ميول الخريجين الخاصة . ووظائف الترجمة التى تولوها بعد تخرجهم قد وجهت كلا منهم إلى نوع من التخصص فى الترجمة ، أو التأليف فى علم من العلوم ، فاتجه محمود خليفة وأبو السعود ،

---

(١) و (٢) الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) بين وثائق عابدين قوائم مختلفة لتوزيع الكتب على المتخرجين فى مدرسة الألسن ، انظر مثلا ، دفتر ١٠٩١ (مدارس تركى) ورقة ١٠ ، رقم ٨٢ ، ودفتر ٢٠٩٨ (مدارس تركى) رقم ٢٤ ، وغيرها ، وقد أثبتنا واحدة من هذه القوائم كملحق لهذا البحث أنظر أيضا عزت عبد الكريم : التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٤٣ .

ومصطفى الزرابى ، ومحمد مصطفى البياع إلى ترجمة الكتب التاريخية، واتجه صالح مجدى وأحمد عبيد الطهطاوى إلى ترجمة الكتب الهندسية والحربية ، ومحمد الشيمى ، والسيد عمارة وحسين على الديك إلى ترجمة الكتب الرياضية ، وعبد الله بك السيد ، ومحمد قدرى باشا إلى ترجمة الكتب القانونية ، والتأليف فيها . وهكذا .

ورغبة فى ترجمة أكبر عدد ممكن من الكتب ، وإنجاز الترجمة فى أسرع وقت ، كانت الكتب توزع على المترجمين أجزاء، إذا كان الكتاب يتكون من أجزاء كثيرة، أو فصولا إذا كان الكتاب جزءاً واحدا وكان يحدد لكل مترجم وقت معين لانجاز الترجمة حسب كبر الجزء أو الفصل أو صغره ، وكانت تتراوح هذه المدة بين أربعة عشر شهرا وخمسة أشهر .

وكان رفاعة يشرف بنفسه على مراجعـــة وتصحيح معظم الكتب ، إن لم يكن كلها ، يشهد بذلك المترجمون من تلاميذه جميعاً فى مقدمات كتبهم ، فهذا عبد الله حسين يقول فى مقدمة تاريخ الفلاسفة : « فاستعنت فى مشكلات الكتاب، وتحرير ترجمته بمدير تلك المدرسة البهية » ، وهذا خليفة محمود يقول فى مقدمة « اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا » «وحيث أنها باللغة الفرنساوية من مستصعبات التآليف . ومختصرات التصانيف ، استعنت فى تذليل صعابها ، وكشف نقابها بمراجعة من لسان القلم فى مدحه ووصفه قصير ، ومن أتى فى مدحه بأبدع مقال فإنما هو آت بيسير من كثير ، حضرة رفاعة افندى مدير مدرسة الألسن ، حين التوقف والحاجة إلى ذلك ، وهو أيضاً الذى صححها على أصلها ، وقابلها كل المقابلة ، فبهذا كانت خير ترجمة لا سيما مز أمثالى حيث أنه لم يكن لى فى مدرسة الألسن غير سنتين ، فى اشتغالى بهاتين اللغتين . الخ » ، وقال فى مقدمة « اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان »: « بذلت الهمة فى تعريبه ، وتنقيحه وتهذيبه ، وازداد تهذيبا بمقابلته مع رب البلاغة والتدقيق، من أوتى فى هذا الفن مفاتيح كنوز الحقيقة والتحقيق ، حضرة رفاعة افندى ناظر قلم الترجمة الخ .

ولم يكن من المستطاع أن يقوم رفاعة بمراجعة وتصحيح كل الكتب المترجمة — على كثرتها واختلافها — بنفسه ، ولهذا أخذ — بعد حين — يشرك معه فى هذا العمل بعض مدرسى المدرسة ومصححيها ، وخاصة الشيخ محمد قطه العدوى ، قال أحمد عبيد الطهطاوى فى خاتمة كتاب « الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر » : « يقول مترجمه ، قد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة ، وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدلهمة واستعنت فيما حواه من المشكلات ، وما اشتمل عليه من المعضلات ، بمراجعة صاحب الرفعة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة ، وتصحيح غالبه بمعرفة العلامة الشيخ محمد قطه العدوى[1] » ، وقال حسن قاسم فى كتاب « تاريخ ملوك فرنسا » : « وكان تصحيح هذا الكتاب الفائق . بمعرفة حضرة العلامة الأوحد

---

(١) الروض الأزهر ، ص ٢٤٧ .

سعادة الميرالاى رفاعة بك الأمجد وعلى يد المستنصر بربه القوى ، محمد قطه العدوى ، مصحح قلم ترجمة»[1]

وممن شارك مشاركة جدية فى مراجعة وتصحيح الكتب التى ترجمت فى مدرسة الألسن ، وقلم الترجمة الشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، كبير مصححى الألسن ، فقد عين فى المدرسة منذ إنشائها . ولم يطبع من كتبها كتاب ، إلا طالعه وتصفحه ، وقابله وصححه وهو يشتغل ليلا ونهارا ،

أما اختيار الكتب التى تترجم فقد كان موكولا لرفاعة بك ، وقد بدأ كما ذكرنا فاختار لتلاميذه بعض الكتب التى قرأها ودرسها وهو فى باريس ككتاب « تاريخ الفلاسفة اليونانيين » وكتاب « بداية القدماء وهداية الحكماء » وكتاب « دى مارسيه » ، فى المنطق الذى ترجم بعنوان « تنوير المشرق بعلم المنطق» الخ .

غير أنه كان يحدث أحيانا أن يكتب ديوان المدارس إلى مدرسة الالسن مشيرا بترجمة كتب معينة ، وإذا قلنا ديوان المدارس ، فانما نعنى فى الواقع مديره أدهم بك فقد كان رجلا مثقفا واسع الثقافة وخاصة فى اللغة الفرنسية والعلوم الرياضية ولهذا نلاحظ أن معظم الكتب التى أشار ديوان المدارس بترجمتها كانت إما كتبا رياضية ، وإما كتبا فى الرحلات ، قال للسيد افندى عمارة فى مقدمة كتاب « تهذيب العبارات فى فن أخذ المساحات : « فقد حللت كغيرى بتلك المدرسة (الألسن) اجتنيت من ثمر اللغة العربية والفرنساوية أنفسه ، بارشاد ناسج حلة بردها ، وناظم جوهر عقدها . . العلامة السيد رفاعة افندى بدوى رافع ، فلما علم منى الرغبة فى التحصيل . . حبانى من فضله إمداده ، إلى أن بلغت المأمول وزياده ، وأمرنى عملا بما صدر من ديوان المدارس المصرية أن أترجم كتابا للمؤلف ، لوكوه ، يتضمن بيان المسافات ، وفن أخذ المساحات . . الخ »

وقال سعد نعام فى مقدمة (سياحة فى أمريكا) : (قد صدر الأمر بتعريبه ، وتفسير تراكيبه من ديوان المدارس المصرية ، التى هى بكسب العلوم حرية ، بأنفاس مديرها حضرة البيك المفخم ، سعادة مير اللوا ابراهيم أدهم . . الخ .

وقال ابراهيم مصطفى البياع (الصغير) فى مقدمة (سياحة فى الهند) : (هذه خدمة يسيرة ، وتعريب رحلة صغيرة ، للمؤلف « أوبير ثرولد » ، ألفها فى سياحته إلى بلاد الهند وجدت فى كتبخانة حضرة البك المفخم مدير المدارس . . سعادة أمير اللواء أدهم بك ، فصدر الأمر بترجمتها من الديوان إلى حضرة علامة الزمان ، من رقى فى مراقى الشرف أرفع محل وأعظمه ، حضرة أمير الآى رفاعة بك ناظر قلم الترجمة ، فعينى حفظه الله لترجمتها . . » الخ .

ويبدو لى أن رفاعة كان يراعى رغبات وحاجات الوالى والحكومة والمدارس فى اختيار الكتب التى

---

(١) تاريخ ملوك فرنسا ، ص ٢٧٦ ، أنظر أيضا سياحة فى أمريكا ، ص ١١٩ ، وتهذيب العبارات فى فن أخذ المساحات ، ص ١٧٢ . . . الخ .

ترجم ، ولكنه كان يتخير الكتب التاريخية تبعاً لخطة خاصة رسمها لنفسه ، فإنه يتضح من مراجعة هذه الكتب أنه كان يريد أن يترجم كتباً مختلفة تغطى تاريخ العالم منذ أقدم العصور حتى أحدثها ، وإن كان تاريخ فرنسا قد حظى منه بعناية خاصة ، فقد ترجم فيه أكثر من كتاب ، ولعل هذا راجع لثقافة رفاعة الفرنسية ، وميله إلى هذه الدولة ، أو العلاقة التى كانت تربط بين مصر وفرنسا منذ نزلت بأراضيها الحملة ، أو لاستعانة محمد على بالفرنسيين فى إصلاحاته ، وإيثاره فرنسا بإيفاد معظم البعثات اليها .

وقد عنى رفاعة بعلم التاريخ هذه العناية ، وعهد إلى تلاميذه بترجمة الكتب الكثيرة فيه لأسباب كثيرة أولها ميله الخاص وثانيها وأهمها ما كان يحسه من شغف محمد على باشا الشديد بدراسة حوادث الأمم ، وتراجم عظماء الرجال . ورفاعة حريص الحرص كله فى كل ما يعمل على أن يرضى « ولى النعم » .

بدأ رفاعة بتنفيذ هذه الخطة ، فاختار كتاباً فى تاريخ الدول والشعوب القديمة ، من مصريين وسوريانيين وبابليين ، وأكراد ، وفرس ، ويونانيين الخ ، وعهد إلى تلاميذه فى مدرسة الألسن بترجمته ، ولما كان هذا الكتاب فى أصله الفرنسى « ناقصاً تاريخ الخليقة والعرب ، وكان فى كتاب عماد الدين أبى الفدا سلطان حماه ما يفى بالأرب ، فقد أضاف رفاعة إليه فصولا من هذا الكتاب « لكمال المطلوب ، وبلوغ المرغوب » والمطلوب والمرغوب : كما رجحنا ، هو تغطية تاريخ العالم بسلسلة من الكتب ، ولهذا نراه لا يتقيد بنصوص المؤلفين عند الترجمة ، بل يبيح لنفسه إضافة أجزاء من كتب عربية قديمة ليكمل بها ما فى هذه الكتب من نقص ، وليحقق خطته التى رسمها لنفسه .

وقد كتب رفاعة مقدمة لهذا الكتاب — وهو أول كتاب تاريخى تترجمه مدرسة الألسن ، فقد طبع فى سنة ١٢٥٤ — فلسف فيها دعوته لدراسة التاريخ ، وأوضح الأغراض من دراسته ، وأشار إلى شغف محمد على بهذا العلم ، وهى مقدمة طيبة لا يشوبها — فيما نرى — إلا التزامه السجع فى فقراتها ، ولكنه كان مضطراً إلى هذا اضطراراً ، فقد كان متأثراً بتقاليد العصر الأدبية ، قال فى هذه المقدمة : « من المعلوم أن الإنسان مدنى بطبعه ، مائل إلى التأنس والعمران بأصله وفرعه ، مضطر إلى السياسة والرياسة ، وحسن الاجتماع والكياسة ، وما يكون به استجلاب كماله ، ومعرفة أسباب حفظه أو تحوله وانتقاله ، وما يكون عليه حال الملك فى نفسه أو مع رعيته ، وعمارة مدائن مملكته ، حيث احتاج إلى ذلك تنظيم المصالح وضبط المهمات على وجه راجح ناجح ، لما أنه يستنبط من ذلك كمال فوائده ، من كان تدريب التجاريب نصب مصادره وموارده ، ولا يتم ذلك إلا من الأخبار اختبر ، والسير والتواريخ سبر ، حتى تضلع من وقائع المشارق والمغارب ، وتجرع من محيطها بأنواع الأذواق والمشارب ، ورجع عن طروق الشبه إلى أهل الذكر ، وهرع إلى طرق التاريخ بالهمة والفكر ، لما أنه يجود بذكر ما جرى عليه النسيان ، ويجيد حوادث الحدثان ، ويخرجها من حيز الخفاء إلى حيز العيان ، ولولا أن مصباح التاريخ به الاستصباح ، لأصبح ماضى

هشيما تذروه الرياح ، فنفعته عامة ، للخاصة والعامة ، وهو مشير كل أمير ، وأمير كل مشير ، وسمير كل وزير ، وظهير كل سمير ، إذا سئل أجاب ، وأبدى العجب العجاب ، ترتاح به الأرواح الفاضلة ، وتلتاح إليه النفوس الكاملة ، من الحكماء والأساطين ، والملوك والسلاطين ، فلذا كانت مطمح نظر الخديو الأعظم ، وملحوظ بصر الداورى الأفخم ، نادرة الدهر ، أنموذج الفخر ، سيد مصر ، وصاحب العصر ، مغناطيس التعجب ، صاحب اليد البيضاء التى لا توارى ، والحسنات الجمة التى لا تجارى ، من به اضمحل الظلم وتلاشى ، أفندينا ولى النعم الملك محمد على باشا . الذى سارت الركبان بذكره فى كل ناد . . وتلقب بأعظم الألقاب ، لا سيما عند ملوك أوربا . أوليس أنه يلقب عندهم معيد تمدن الاسلام ، ومبيد تمكن الأوهام

ولما كان تولعه بالتواريخ شديدا ، وتطلعه لأخبار الملوك الماضين مزيدا ، وله فى معرفة أحوال رجال القرون الأولى ، المادة الغزيرة واليد الطولى ، والقريحة الوقادة . والبصيرة النقادة ، وكان تاريخ تلك العصور ، بالكتب العربيـــة فى غاية القصور ، لاسيما تاريخ اليونان ، المشتمل على أحوال رجال تلك الأزمان . . . وكان بمدرسة الألسن من يقوم بتعريب طرفه ، ويخرج دره من صدفه ، أعطيته لعدة أفراد ، لتعريب المراد فى أقرب ميعاد . . » الخ .

وقد اشترك فى ترجمة هذا الكتاب مصطفى الزرابى افندى ، ومحمد عبد الرازق افندى ، وأبو السعود افندى

وبعد الانتهاء من ترجمة هذا الكتاب فى تاريخ العالم القديم ، تخير رفاعة كتاباً آخر فى تاريخ العصور الوسطى ، وعهد لمصطفى افندى الزرابى بترجمته ، فخرج كتاباً كبيرا فى جزئين ، يقع الجزء الأول فى ٢٦٨ صفحة ، والثانى فى ٣٠٩ صفحة ، وقدم له رفاعة بما يؤكد خطته التى زعمناها ، قال : « يقول الفقير إلى الله تعالى رفاعة رافع ناظر مدرسة الألسنة ، هذه رسالة فى تاريخ القرون المتوسطه تكملة لتاريخ القدماء الذى طبعه ولى النعم ، صاحب الجود والكرم ، وقد سمى هذا الكتاب ، « قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون » .

تناول هذان الكتابان تاريخ العصور القديمة والمتوسطة . وقد انقسم العالم فى العصور الحديثة إلى دول كثيرة مختلفه ، ولكل دولة تاريخها ، وقد عنى رفاعة بتاريخ فرنسا خاصة للأسباب المتقدم ذكرها . فعهد إلى أحد النابغين من تلاميذه — أبى السعود أفندى — بترجمة كتاب « نظم اللآلىء فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك » فترجمه . وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

وبعد سنوات قليلة من ترجمة هذا الكتاب أهدى المؤرخ الفرنسى « مونيقورس » كتابه فى « تاريخ ملوك فرنسا » إلى شريف باشا « مدير عموم المالية » . « وبالمذاكرة مع حضرة البك المفخم مدير عموم المدارس إبراهيم أدهم . استقر الرأى على طبعه وأن يطبع على ذمة حضرة الباشا المشار إليه مكافأة لمؤلفه

فى نظير الإهداء»[١] وقد قام بترجمته حسن قاسم أفندى أحد خريجى الألسن . وطبع فى بولاق فى سنة ١٢٦٤ .

وقد عرف رفاعة أن محمد على يعنى عناية خاصة بدراسة سير أمثاله من الملوك المصلحين . الذين نهضوا بأممهم نهضات يذكرها التاريخ . ولهذا « اختار تاريخ ملك من ملوك الافرنج تعلو همته بينهم على المريخ . وهو تاريخ بطرس الأكبر . الذى فضله بين ممالك أوربا أشهر من أن يذكر »[٢] وعهد إلى نابغ آخر من تلاميذه ومواطنيه — وهو أحمد عبيد الطهطاوى أفندى . بترجمته . والكتاب من تأليف الفيلسوف الفرنسى المعروف « ڤولتير »

ومن كتب التراجم التى عربها خريجو الألسن كذلك كتاب « مطالع شموس السير فى وقائع كارلوس الثانى عشر » ترجمه محمد مصطفى الزرابى أفندى « وكانت ترجمته بأوامر مدير المدارس . لازال مختارا لإبراز الدرر والنفائس »[٣]

ولما كان الكتاب يؤرخ لمملكة « أسوج » — السويد — حتى عهد كارلوس الثانى عشر . فقد رأى المترجم أنه من المناسب أن يذيله . « بتذييل لطيف يذكر فيه من حكمها بعده من الملوك إلى عهدنا هذا — طبع الكتاب فى ١٢٥٧ — على طريق الإيجاز . لتعلم أحوال تلك البلاد الشمالية . وتتم بذلك فائدة الكتاب » وقد انتخب المترجم هذا التذييل من « كتاب المؤلف راغوان فى أحوال القرن الثامن عشر »[٤]

ذكرنا قبل هذا أن خريجى الألسن فى نحو عشر سنوات يتراوحون بين السبعين والمائة وأنهم ترجموا ما يقرب من الألفى كتاب . ومن العسير أن نترجم هنا لجميع هؤلاء الخريجين . أو أن نذكر بالتفصيل جهودهم فى الترجمة . فاكتفينا بعرض التيارات العامة التى كانت توجه المترجمين فى قلم الترجمة الملحق بالمدرسة وتحدثنا حديثاً موجزاً عن بعض جهود الخريجين تحت ضوء هذه التيارات . وسنتخير هنا علمين من أعلام الخريجين . فنتحدث عن جهودهما فى الترجمة واكتفينا بالإشارة إلى جهود الآخرين بذكر الكتب التى ترجموها فى الثبت العام للكتب التى ترجمت فى عصر محمد على الذى الحقناه بهذه الرسالة

هذان العلمان هما عبد الله أبو السعود أفندى والسيد صالح مجدى أفندى (بك فيما بعد) . وقد دفعنا إلى اختيارهما أنهما كانا أكثر الخريجين اتصالا بأستاذهم رفاعة فى عهد محمد على . ثم فى عهد اسماعيل . وأنهما كانا أكثر الخريجين إنتاجاً وترجمة . بل وتأليفاً فيما بعد .

أما أبو السعود أفندى فقد ولد فى دهشور سنة ١٢٣٦ . وكان والده قاضياً ثم اختير ناظراً لأحد

---

(١) تاريخ ملوك فرنسا . ص ٢ .
(٢) الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر . ص ٣ .
(٣) مطالع شموس السير . ص ٣ .
(٤) المرجع السابق السابق ص ٢٥٥ .

المكاتب التى أنشأها محمد على . وهو مكتب البدرشين . وذلك فى سنة ١٢٤٨ . فألحق ابنـــه تليذا بهذا المكتب . ومنه اختاره رفاعه بك فى سنة ١٢٥٠ ليكون تليذا بمدرسة الألسن . وفيها تفوق على أقرانه وخاصة فى اللغة العربية . فاختير فى سنة ١٢٥٤ مدرساً لهذه اللغة خلفاً لأستاذه الشيخ حسنين الغمراوى . ومنح رتبة الملازم الثانى . وبعد قليل رقى إلى رتبة الملازم الأول ونقل إلى مدرسة المهندسخانة فكان يدرس بها اللغة الفرنسية . ويشترك فى تصحيح الكتب الرياضية التى يترجمها مدرسوها . ولم يكتف فى هذه السنوات بالثقافة التى تلقاها فى الألسن . بل كان يحضر دروس الفقه بالجامع الأزهر ومن أساتذته الشيخ خليل الرشيدى . والشيخ أحمد المرصفى . والشيخ المنصورى . والشيخ التميمى المغربى .

وفى سنة ١٢٥٩ عندما أعيد تنظيم قلم الترجمة الملحق بالألسن تحت رئاسة رفاعه بك. ونظارة كانى بك نقل إليه أبو السعود أفندى . ولم يترجم فى تلك الفترة إلا كتاب « نظم اللآلى فى السلوك فيمن حكم فرنسا ومن قام على مصر من الملوك » والثلثان الأولان من الكتاب مترجمان عن الفرنسية . وموضوعهما تاريخ ملوك فرنسا من الدولة « الميروفنجية » إلى عهد الملك « لوى فيليب » . أما الثلث الأخير فمن وضعه وقد ضمنه تاريخ حكام مصر وولاتها منذ عهد الخليفة أبى بكر الصديق إلى عهد السلطان عبد المجيد . وقد طبع هذا الكتاب فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

وفى عهد عباس الأول انزوى أبو السعود أفندى موظفاً عادياً لا جهد له ولا نشاط . ولا عجب فهو تليذ رفاعة . فلما تولى سعيد باشا الحكم عاد أبو السعود إلى الحياة . وسافر مع الوالى إلى السودان كاتباً لمعيته . وبعد عودته عين بقلم الترجمة بالخارجية. وفى أوائل عهد اسماعيل عاد إلى قلم الترجمة الملحق بديوان المدارس ليعمل من جديد بالاشتراك مع زميله صالح مجدى تحت رئاسة أستاذهما رفاعة بك .

وفى هذا العهد بلغ نشاطه فى الترجمة والتأليف أوجه فترجم سبعة كتب[1] معظمها فى التاريخ وهو العلم الذى تخصص فيه . وبعضها فى الزراعة والكيمياء أو القانون أو الجغرافيا . وفى هذا العهد أيضاً خطا أبو السعود خطوة جريئة فأنشأ فى مصر أول صحيفة وطنية شعبية هى جريدة « وادى النيل »[2] وقد كان لهذه الصحيفة شأن كبير فى التمهيد للحركة الوطنية فى عهد اسماعيل .

وقد ساهم أبو السعود فى تحرير أول مجلة مصرية ظهرت فى ذلك الوقت وهى « روضة المدارس » . ثم اختير فى أخريات أيامه ناظرا لقســلم الترجمة خلفاً لأستاذه رفاعة ، ثم كان مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم . وعضوا بمجلس الاستئناف إلى أن توفى فى الثامن من صفر سنة ١٢٩٥ .

أما السيد صالح مجدى فهو من أسرة عربية الأصل . ولد فى قرية أبى رجوان من أعمال مديرية الجيزة

---

(١) انظر قائمة كتبه فى معجم سركيس . عمودا ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) انظر ملابسات انشاء هـذه الصحيفة . وجهود أبى السعود فى تحريرها فى : (ابراهيم عبده . أعلام الصحافة العربية . ص ١١٤ - ١١٨) .

فى سنة ١٢٤٢ أوسنة ١٢٤٣ . وتلقى علومه الأولى فى مكتب حلوان الأميرى . ومنه اختير كما اختير زميله أبو السعود ليكون تلميذا بمدرسة الألسن . فألحق بها فى سنه ١٢٥٢ .

وفى عهد تلمذته بهذه المدرسة ظهر نبوغه فى اللغتين العربية والفرنسية . فلما أنشىء قلم الترجمة فى سنة ١٢٥٨ وجعل من أقسامه قسم لترجمة الكتب الرياضية تحت رئاسة بيومى أفندى جعل السيد صالح مجدى وكيلا لهذا القسم . وفيه ترجم كتابين ، أحدهما جداول المهندسين . وثانيهما تطبيق الهندسة على الميكانيكا والفنون »[1] .

وفى سنة ١٢٦٠ نقل إلى مدرسة المهندسخانة — حلفاً لزميله أبى السعود الذى نقل من المهندسخانة إلى قلم الترجمة فى سنة ١٢٥٩ — وفى هذه المدرسة عين مجدى « لتدريس اللغتين الفرنساوية والعربية وتعليم نجباء تلامذتها فن الترجمة وتعريب فروع الرياضيات التى تدرس بها القواعد العربية »[2] ويقول على باشا مبارك فى كتابه الخطط : « إنى قد كنت من رجال هذه المدرسه . فعرفت المترجم فيها . واتخذته لى صاحباً وصديقاً . كنت قد تعينت فى سنة ٦٠ التى التحق هو فيها بتلك المدرسه للسفر مع عدة من أمثالى إلى مملكة الفرنسيس لتكميل العلوم الرياضية ، وتحصيل الفنون العسكرية المتعلقة بالطوبجية والاستحكامات فلما رجعت إلى مصر بعد خمس سنين وجدته قد وصل إلى رتبة يوزباشى ، وأخبرنى أنه أحرزها فى سنة ١٢٦٢ وأنه عرب فى هذه المدة عدة كتب فى فروع الرياضيات منها كتاب فى الطبوغرفيا والجيودوزية . وكتاب مكانيكا نظرية . وكتاب ميكانيكا عملية وكتاب أدروليكا ، وكتاب حساب آلات . وكتاب طبيعة . وكتاب هندسة وصفية وكتاب فى حفر الآبار ورسالة فى الأرصاد الفلكية تأليف الشهير « أرجو » ، ولما أحيلت على عهدتى نظارة المهندسخانة وما معها سنة ست وستين بعد انتقالى من رتبة صاغ قول أغاسى إلى رتبة أمير الاى كان لى المترجم رفيقاً مع قيامه بوظائفه ، وطالما استعنت بقلمه على تأليف كتب متنوعة فى فنون شتى . وقد ترجم فى تلك المدة عدة كتب فى الرياضة ، منها كتاب فى الحساب ، وكتاب فى الجبر وكتاب فى تطبيق الجبر على الأعمال الهندسية وكتاب فى الظل والمنظور وكتاب فى حساب المثلثات . وكتاب فى الهندسة الوصفية . وكتاب فى قطع الأحجار والأخشاب . وهى كتب جار عليها العمل إلى الآن فى المدارس . وله غير ذلك من الكتب التى تجل عن الحصر » .

وهكذا كان صالح مجدى أسعد حظاً من صديقه أبى السعود . فقد مهدت له معرفته بعلى مبارك السبيل

---

(١) الخطط التوفيقية . ج ٨ ص ٢٣ . وقد ترجم للسيد صالح مجدى ترجمة مختصرة جورجى زيدان فى « مشاهير تراجم الشرق » ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٩ . وترجم له ترجمة طويلة ابنه محمد مجدى فى مقدمة ديوانه الذى نشره بعد وفاته ص (د — ى) والترجمتان معتمدتان كثيرا على ما جاء فى ج ٨ من الخطط عنه .

(٢) الخطط التوفيقية . ج ٨ . ص ٢٣ .

إلى البقاء فى مدرسة المهندسخانة فى عهد عباس . وفى هذه المدرسة قضى نحو عشر سنوات أنتج فيها هذا الإنتاج الضخم . وفى عهد سعيد باشا عاد أستاذه رفاعة من السودان غير أنه ظل مدة عاطلا . فنقل بجدى فى سنة ١٢٧٢ وكيلا لمأمورية أشغال الطوابى بالقلعة السعيدية . وعهد إليه بترجمة الكتب العسكرية . ثم مباشرة طبعها فى مطبعة بولاق . ثم لم يلبث أن جذبه رفاعة إليه فنقل ناظراً لقلم الترجمة الملحق بالمدرسة الحربية بالقلعة التى كان يتولى نظارتها رفاعة .

وفى أوائل عهد اسماعيل ، أعيد انشاء قلم الترجمة [١] الملحق بديوان المدارس وتولى الإشراف عليه رئيسه القديم رفاعة بك . وكان من مترجميه أبو السعود وصالح بجدى . بل لقد أتى على هذا القلم وقت لم يكن به من المترجمين غير صاحبينا وزميل ثالث لهما كان له شأن أى شأن فى ترجمة الكتب التاريخية فى عصر محمد على وهو حسن افندى الجبيلى .

وقد شارك بجدى فى تلك الفترة كأستاذه رفاعة وزميله أبى السعود فى التحرير فى روضة المدارس . ثم فى ترجمة « قانون نابليون » Code du Napoleon وفى ترجمة القوانين المختلفة الأخرى التى تم نقلها إلى اللغة العربية فى عهد اسماعيل ، وظل ينقلب فى الوظائف حتى عين فى سنة ١٢٩٢ (١٨٧٥) قاضياً بمحكمة مصر . ولبث يشغل هذا المنصب حتى توفى فى ذى الحجة سنة ١٢٩٨ .

وفى كل تلك العهود كان على باشا مبارك يستعين به وبجهوده وعلمه فى تأليف وتصنيف معظم كتبه . فقد قال فى الخطط « وفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين بعد الألف أحيلت على عهدتى — وأنا إذ ذاك ناظر القناطر الخيرية — مأمورية تأليف كتاب الهجاء والتمرين ، فطابت المترجم من ديوان المدارس بأمر عال فحضر عندى . واشتغل معى بالكتاب المذكور حتى تم على أحسن حال . . . وتكرر طبعه حتى زادت نسخه على خمسة عشر ألفاً [٢] » . ثم قال « ولما أحيلت على عهدتى نظارة عدة دواوين ومصالح فى آن واحد استعنت بقلمه على تحرير عدة لوائح وترتيبات نافعة لادارة هذه المصالح [٣] » . وقال أيضاً « وباشر معى أيضاً بعض التاريخ الذى عملته للديار المصرية فى عدة مجلدات . وبعض رسائل جمعتها وطبعت بمعرفته فى جرنال روضة المدارس . . [٤] » . وقال محمد بجدى فى ترجمة والده التى نشرها فى مقدمة ديوانه أنهما أتما من هذا الكتاب « ما يتعلق بالفراعنة والأكاسره والبطالسة والرومانيين . ووصلا فيه فى مدة الإسلام إلى سنة ستين ومائة بعد الألف من الهجره . وبلغ ما جمع فيه من المجلدات نحو أربعمائة كراسة . وهو الآن

---

(١) انظر عزت عبد الكريم . تاريخ التعليم فى عصر اسماعيل . ص ١٠٨ — ١١٢ .
(٢) الخطط التوفيقية . ج ٨ ص ٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٤ .

لدى سعادة على مبارك باشا . والغالب أنه مهيأ للطبع ..»[١] . وقد ظن البعض أن المقصود بهذا الكتاب هو كتاب الخطط . غير أن الخطط تم طبعها فى سنة ١٨٠٦ . وديوان صالح مجدى طبع فى سنة ١٩١١ . فكأن الكتاب الذى كان مهيأ للطبع فى سنة ١٩١١ هو غير الخطط قطعاً وخاصة أن موضوعه هو تاريخ مصر فى مختلف العصور لا طوبغرافيتها . غير أنى رجعت إلى قائمة الكتب المطبوعة التى ألفها كل من على مبارك وصالح مجدى . فلم أجد من بينها كتاباً فى تاريخ مصر . فلعله لم يطبع .

هذا هو صالح مجدى . وهذا موجز عن جهوده . فقد قضى العمر كله يترجم ويؤلف حتى زادت ترجماته ومؤلفاته عن « خمسة وستين كتاباً ورسالة »[٢] .

أبو السعود وصالح مجدى علمان كما قلنا من أعلام خريجى الألسن . وهما خير نموذجين لهذه الطائفة من المترجمين . وعلى مثالها بذل إخوانهما الجهد فى الترجمة . ومن صنفهما عثمان جلال فى ميدان الأدب . وقدرى باشا فى ميدان القانون .

وقد ربطت الحوادث بين هذين العلمين وبين أستاذهما رفاعة . فعملا معه فى قلم الترجمة فى عصرى محمد على واسماعيل . واشتركا معه فى تحرير روضة المدارس وفى ترجمة قانون نابليون . غير أنهما رغم هذا اختلفا الواحد عن الآخر فى ميادين أخرى ، فقد كان صالح مجدى أقرب إلى على مبارك فى دراساته وثقافته الرياضية والعسكرية ولهذا تعاون فى إنتاجه العلمى مع على مبارك أكثر من تعاونه مع أستاذه رفاعة . ومع هذا فقد كان فضل رفاعة عليه كبيراً فإن ثقافته الفرنسية والعربية التى تلقاها فى مدرسة الألسن هى التى رشحته للعمل فى قلم الترجمة فى عهدى محمد على وإسماعيل . وهى التى رشحته للعمل فى مدرسة المهندسخانة فى عهدى محمد على وعباس . وثقافته القانونية فى الألسن أيضاً هى التى رشحته للعمل فى ترجمة القوانين ثم لتولى وظيفة القضاء فى عصر اسماعيل . لهذا كان مجدى أبر التلامذة بأستاذه ، فهو الوحيد من بين تلاميذ رفاعة الذى أرخ له بعد وفاته ، فكتب عنه كتابه القيم — رغم صغره — « حلية الزمن بذكر مناقب خادم الوطن » .

أما أبو السعود فكان أكثر تأثراً بأستاذه . فقد تخرج من الألسن شغفاً كأستاذه بعلمى التاريخ والجغرافيا . ولهذا كانت معظم مترجماته ومؤلفاته فى هذين العلمين . وقد اعترف بفضل رفاعة عليه وتأثره به فى هذا الميدان فى مقدمة كتاب عربة فى الجغرافيا فى عصر اسماعيل . ونشره بالتتابع فى صحيفته وادى النيل . ثم طبعه على حدة تحت عنوان « الدرس المختصر المفيد فى علم الجغرافيا الجديد » قال « وكان قد سبقنى فى انتهاج هذا المنهاج .. فى منتصف هذا القرن الأخير . وأول عهد المرحوم محمد على باشا الكبير .

---

(١) ديوان صالح مجدى . المقدمة . ص (ط) .

(٢) الخطط التوفيقية . ج ٨ . ص ٢٥ .

حضرة أستاذى رفاعة بك افندى الشهير . وهو وإن كان لم يزل له فضل السبق ، وكان بالاحترام والتبجيل أحق . ولربما جئت بالغث وجاء بالسمين . وتزييت بالرث وتزى بالثمين . غير أنه لما كان هذا العلم عبارة عن استقصاء حقيقة أحوال هذا العالم السريع الانتقال من حال إلى حال . واستمرار تنقل الملل والنحل وغير ذلك من التقلبات الموالية على ممر الأوقات واللحظات . احتاج هذا العلم لمن يقف له بالمرصاد ويبذل فى خدمته على الدوام — كالحاصل فى البلاد المتمدنة — كل الاجتهاد ، فلذلك قفوت من أستاذى الأثر . وحذوت حذوه فى مشقة ذلك السفر . . وإذا كان أستاذى حفظه الله قد أتى من هذا الأكل بالباكورة فقد أتيت بوفرة الثمر . أو كان قد بدر بالبدر فقد جئت بالشمس والقمر . وإذا كان قد جاء بالتعريبات الشافية فى علم الجغرافيا . فهذه الرسالة بحمد الله هى الخلاصة الكافية . . إلخ »[1] .

---

(١) من (ب ج — د) من المقدمة .

٤ — المترجمون من الموظفين

معظم الكتب التى ترجمها هذه الطائفة كانت لخدمة الحكومة وخاصة الجيش . ولارضاء محمد على وابراهيم . معظم هذه الكتب ترجمت عن الفرنسية أو العربية إلى التركية . كانى بك . جهوده فى ترجمة الكتب العربية . ترجمة وصايا « فريدريك الأكبر » لقواده . الكتب التى ترجمت بأمر ابراهيم باشا . كانى بك ناظر قلم الترجمة التركية فى عهد ابراهيم ، أسطفان أفندى . أحمد أفندى خليل . ما ترجمه . عناية محمد على بدراسة التاريخ وخاصة سير العظماء والصلحين . الكتب التى ترجمت له فى هذا الميدان كتاب . واحد ترجم عن الفارسية إلى العربية وهو كلستان سعدى . الكتب الرياضية . جهود أدهم بك فى هذا الميدان . كتابان فى الطب ترجما إلى اللغة التركية

كانت معظم الكتب التى ترجمها السوريون — إن لم تكن كلها — كتباً طبية ولخدمة التعليم فى مدرستى الطب البشرى والبيطرى . وكانت معظم الكتب التى ترجمها خريجو المدارس والبعثات كتباً طبية ورياضية فلما أنشئت مدرسة الألسن . تنوعت الترجمة . فترجم خريجوها فى كل علم وفن . وإن كانت ترجماتهم اتجهت فى معظمها إلى الأدبيات . متأثرة فى ذلك بروح ناظر المدرسة وأستاذها رفاعة رافع الطهطاوى

وقد شاركت فى الترجمة فى عصر محمد على طائفة رابعة لم تكن تجمعها ثقافة واحدة وهى طائفة من موظفى الحكومة . وكانت معظم الكتب التى ترجمتها هذه الطائفة لخدمة الحكومة — وخاصة الجيش — ثم لإرضاء رغبات الوالى محمد على . وفى بعض الأحيان لإرضاء رغبات ابنه « السر عسكر » ابراهيم باشا ولهذا كانت معظم الكتب التى ترجمها هؤلاء الموظفون عن الفرنسية إلى التركية . أو عن الترجمات العربية لكتب فرنسية إلى التركية . أو عن العربية إلى التركية . فقد كانت اللغة التركية هى اللغة الأولى لمحمد على ولمعظم رجال حكومته .

شمل برنامج الاصلاح المحمدى العلوى جميع مرافق الحياة المصرية . غير أن العناية كل العناية كانت موجهة للجيش . فهو دعامة محمد على للاستقلال ولاحياء العالم العثمانى . ولتنفيذ نواحى النشاط الأخرى . وقد كان معظم من ألحقوا بالمدارس الحربية أول إنشائها — ليتخرجوا ضباطاً للجيش الجديد — من عنصر تركى . وكانت الخطة الموضوعة ترمى إلى تكوين الجيش . وتمرين ضباطه على النظم الأوربية الجديدة وكانت فرنسا هى الدولة التى ينقل عنها محمد على ولهذا ترجمت الكتب الحربية عن الفرنسية إلى التركية .

ولم يكن من المترجمين السوريين أو المصريين من خريجى البعثات أو الألسن من يعرف التركية أو يجيدها . ولهذا ألقى هذا العبء على كواهل موظفى الحكومة ممن يتقنون الفرنسية والتركية . وقد ذكرنا قبلا أن هذا الجهد بدأه عثمان نور الدين غير أنه غادر مصر فى سنة ١٨٣٢ . والحرب بين مصر والدولة

العثمانية لم تهدأ أسبابها . لهذا خلفه فى هذا الميدان أناس كثيرون أهمهم كانى بك . وهو رجل من أصل تركى كان من كبار موظفى الدولة فى عهد محمد على . وشارك مشاركة فعالة منتجة فى جميع اللجان التى أشرفت على تنظيم التعليم فى ذلك العهد . وخاصة فى لجنتى ١٨٣٥ و ١٨٤١ . وقد قام بترجمة معظم الكتب الحربية التى ترجمت فى عصر محمد على وإن كان لم يذكر إسمه عليها لأنها كانت فى معظمها تعليمنامات أو قانونامات ولهذا كان من العسير أن نحقق كم كتاباً ترجم . غير أن بعض أوامر محمد على كانت تشير إلى بعض ما ترجم من كتب .

فى ١٤ المحرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٣) « قرر مجلس الجهادية ضرورة تنفيذ إرادة ولى النعم بطبع ألف نسخة من ترجمة الكتاب الذى ترجمه كانى بك ميرالاى الرجال المشتمل على مدافعة المشاة والفرسان بالمزاريق . لما يترتب على نشره من عظيم الفوائد »[١] .

وقد ذكر «بيانكى»[٢] فى قائمته أن هذا الكتاب طبع فى بولاق سنة ١٢٤٨ (١٨٣٣) تحت عنوان « فى تعليم الحربة والمزراق » ولم يشر إلى أنه من ترجمة كانى بك .

وفى تلك السنة أحس ابراهيم باشا سر عسكر الجيوش المصريه فى الشام حاجته إلى كانى بك . فأرسل يطلبه ، ووافقت حكومة محمد على على إرساله على أن يقوم أسطفان افندى — وهو أرمنى الأصل وواحد من خم يحى البعثات — بما كان يقوم به كانى بك من ترجمة الكتب الحربية عن الفرنسية إلى التركية . فى ٢٩ ربيع الثانى ١٢٤٨ « قرر مجلس الجهادية إرسال كانى بك أميرالاى ليكون فى معية أفندينا رئيس المعسكر المنصور . . ويحال على أسطفان افندى بقية ترجمة كتاب تعليمنامة الفرسان . لمهارته فى اللغتين الفرنسية والتركية التى كان مكلفاً به كانى بك وترجم معظمه . وأن يسرع فى إتمامه . وهذا بناء على ماقدمه حضرة أمير اللواء سامى بك رئيس معاونى افندينا ولى النعم طبقاً لإرادة أفندينا سر عسكر »[٣] .

وفى ١٣ جمادى الأولى[٤] كتب محمد على باشا إلى محمد حبيب افندى يستصوب القرار السابق . وبعد سبعة عشر يوماً كتب يوحنا بحرى[٥] إلى الباشمعاون ينبئه بوصول كانى بك إلى طرسوس ، وفى ٢٣ رجب[٦] كتب كانى بك إلى سامى بك يخبره بأن السر عسكر قد عهد إليه بكتابة التقارير التى ترسل من ديوانه إلى مصر « لتعرض على الأعتاب السنية الخديوية »

---

(١) الوقائع المصرية . العدد ٣٩٦ فى ٢٥ المحرم سنة ١٢٤٨ .

(٢) Bianchi, Catalogue Général des livres arabes, persans et turc . . . etc .

(٣) الوقائع المصرية . عدد ٤٣٧ فى ٩ جمادى الأولى ١٢٤٨ .

(٤) عابدين . معية تركى ، ٥٠ رقم ١٥ .

(٥) عابدين . محفظة ٢٣٩ . رقم ٢٣٩ و ٢٤٠ .

(٦) عابدين . محفظة ٢٤١ . رقم ١٤٨ .

وقد قام كانى بك بعمله الجديد خير قيام . ثم عاد إلى مصر فى سنة ١٢٤٩ . فكتب ابراهيم باشا إلى سامى بك بأنه « يرى فى كانى بك الموجود فى القاهرة الكفاءة اللازمة لرتبة أمير الاى ويقترح تعيينه قائداً على آلاى الفرسان[١] .

وفى أثناء غياب كانى بك كان أسطفان افندى هو المترجم للكتب الحربية ، فأكمل ترجمة الكتاب السابق . ثم أتم فى سنة ١٢٤٩ ترجمة كتاب آخر عنوانه « كوماندارية الفرسان » فقرر مجلس الشورى العسكرية طبع ألف نسخة منه « لما فيه من الفوائد الشاملة »[٢] فلما عاد كانى بك من الشام بدأ يستأنف جهده القديم . ففى ٢٩ رجب سنة ١٢٥١ صدر أمر من محمد على باشا إلى أدهم بك يشير فيه إلى أنه « اطلع على الشقة المرغوب بها صدور الأمر إلى كانى بك بترجمة الثلاثة كتب تعليمات الطوبجية الجديدة الموجودة بطرفه وعليه قد صدر الأمر إلى الموما إليه بذلك فيلزم تسليمه إياها لترجمتها »[٣]

وقد ذكر له مسيو بيانكى[٤] كتابين آخرين هما « تحفه ضابطان » و « قانونامه ثالث سوارى » وذكر أنهما من تأليفه ، والصواب أنه ترجمهما عن الفرنسية إلى التركية وطبعا فى بولاق سنة ١٢٥١ (١٨٣٦) .

وفى سنة ١٢٥٠ قام سليمان باشا الفرنساوى بتصنيف كتاب فى فن المناورات الحربية جمع موضوعاته من كتب فرنسية مختلفة ، فكتب اليه محمد على يشكره . وأوصى بأن يلحق به عدد من المترجمين لترجمة هذا الكتاب إلى اللغة التركية . وكان من بين هؤلاء المترجمين كانى بك . ففى ٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ كتب محمد على إلى سليمان باشا بأنه « صار ممنونا جداً من اهتمامه بجمع وتأليف كتاب المناورات الحربية من كتب أوربا الشاملة لذلك نقصد بث هذا الفن بين عساكره الجهادية . إذ أن ذلك مما كان فى حيز فكره لأنه من الأمور المهمة الصالحة الخيرية . ولما كان مرغوب سعادته اعطاؤه كاتباً ومترجماً من المستعدين قد صدر أمره إلى وكيل الجهادية بتعيينهم . وبنهو وإتمام هذه الخدمة الخيرية يتضاعف رضاه عليه فيرجوه الاهتمام فى ذلك »[٥] . وفى نفس التاريخ صدر منه أمر إلى وكيل الجهادية « بتعيين مترجم وكاتب لسليمان باشا الفرنساوى لترجمته كتاب المناورات الحربية . ويشير بتعيين كانى بك وحسن افندى القزنجى لانتفاع الآلايات المصرية بانتشار هذا الكتاب »[٦]

وكثيراً ما كان ابراهيم باشا يشير — وهو فى ميدان الجهاد فى الشام — بترجمة بعض الكتب الحربية

---

(١) عابدين ، محفظة ٢٤٨ رقم ٧٥ .
(٢) الوثائق المصرية العدد ٥٤٨ ، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى سنه ١٢٤٩ .
(٣) تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٤٥٥ .
(٤) Bianchi. Op. Cit.
(٥) تقويم النيل ج ٢ ، ص ٤٢٨ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٤٢٧ .

أو التاريخية . وإرسال نسخ منها اليه ليستعين بها على تدريب جنوده وضباطه وتثقيفهم . يؤيد هذا كثير من الأوامر المحفوظة فى وثائق عابدين ؛ ففى ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨ أرسل ابراهيم باشا إلى سامى بك يرجوه ارسال بعض ماطبع فى مصر فى الفنون والتمرينات العسكرية [١] فكتب اليه محمد على باشا فى الثانى والعشرين من نفس الشهر يفيده بأنه أصدر أمره إلى محمود بك « كى يرسل النسخ المطلوبة من قانون تعليم المشاة وغيره » [٢]

وفى ٢١ رمضان سنة ١٢٤٨ كتب ابراهيم باشا إلى والده يخبره أن مختار افندى الدويدار كان قد ترجم « وصايا فريدريك الأكبر إلى قواده . وهو فى باريس ويقترح الموافقة على طبعها [٣] ومن العجيب أن هذا الكتاب كان واحداً من الكتب الأولى التى ترجمت فى عصر محمد على . فقد ترجمه عن الفرنسية إلى التركية « شانى زاده محمد عطاء الله » [٤] فى سنة ١٢٢٠ . وأمر محمد على بطبعه فطبع فى مطبعة بولاق بعيد إنشائها ، وليس فى مقدمته أو خاتمته مايبين السنة التى طبع فيها . ولكننى أرجح أنه طبع حوالى سنة ١٨٢٢ أو ١٨٢٣ ، ويؤيد هذا الترجيح طبعه الردىء ، وحروفه المعتلة الشبيهة بحروف الكتب الأولى التى طبعت فى بولاق ، كالقاموس الإيطالى العربى وصناعة صباغة الحرير ، لهذا كتب محمد على إلى ابنه فى ٨ شوال [٥] يخبره بأن هذا الكتاب سبق أن ترجم وطبع

وفى ذى الحجة سنة ١٢٥٠ أرسل ابراهيم باشا إلى وكيل الجهادية يستصوب « ترجمة الكتاب الفرنسى الخاص بنظامات وترقيات العساكر » [٦] فبادر محمد على باشا وأصدر أمره إلى سليمان باشا الفرنساوى « بأنه لكون ترجمة هذا الكتاب من الأمور المهمة المستعجلة يلزم جمع التراجمة ، وحل حبكته ، واعطاء كل مترجم كراس منه لسهولة ترجمته فى أقرب وقت » [٧]

وفى ٧ شوال سنة ١٢٥١ أرسل ابراهيم باشا إلى سامى بك يشير بترجمة كتاب فرنسى آخر فى المناورات الطوبجية والسوارى والبيادة » [٧]

---

(١) عابدين محفظة ٢٤٠ . رقم ٣٠ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ . رقم ١٨٥ .

(٣) عابدين محفظة ٢٤٣ رقم ٤٤ — ١٤٦ .

(٤) ترجم هذا الكتاب تحت عنوان « وصايا نامه » سفرية « ولفظ سفر فى اللغة التركية معناها الحرب وبقابلها لفظ الحضر أى السلم . لأن الجند أثناء القتال يكونون دائما على سفر . ولهذا يكون معنى العنوان « وصايا فريدريك الأكبر الحربية لقواده » (صدرت هذه الوصايا فى سنة ١٧٦٠) وهو كتاب صغير فى ١٤٥ صفحة من القطع الصغير . انظر مقدمته حيث يشير فيها المترجم إلى أنه ترجمه فى سنة ١٢٣٠ . وأنه طبع تنفيذا لأمر محمد على (أنظر صورة الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب فى الصفحة المقابلة) .

(٥) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٠٤ .

(٦) تقويم النيل . ج ٢ ص ٤٣٤ .

(٧) عابدين محفظة ٢٥٢ ، برقم ١٠٩ — ٢٠٣ مكرر .

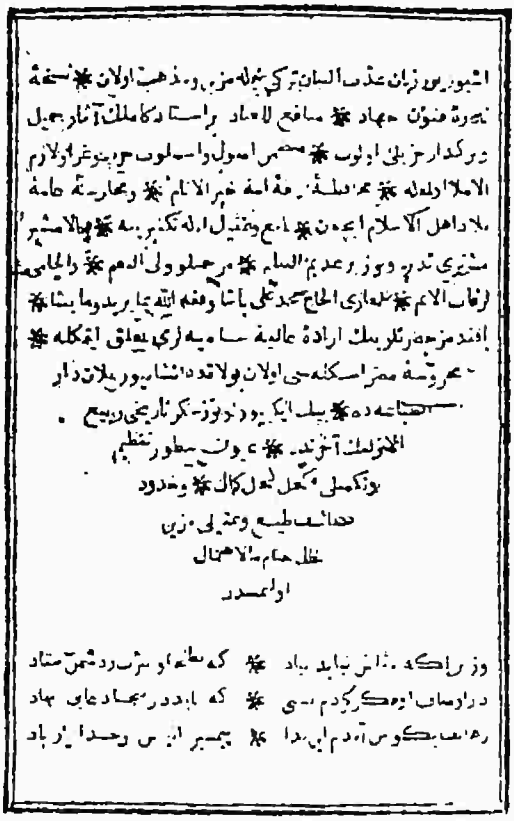

الصفحة الأخيرة من كتاب « وصايانامه » سفرية »

أي وصايا فردريك الأكبر الحربية لفؤاده ، ترجمها شاني زاده محمد عطاء الله
وهو من أوائل الكتب التي طبعت في بولاق

وهكذا كان يتنافس الرجلان : الأب والابن فى التقاط الكتب الحربية ، والأمر بترجمتها لتتبع تعاليمها فى إنشاء الجيش الجديد وتنظيمه حتى يصل إلى مستوى الجيوش الأوربية الحديثة . وقد ظلت هـذه الأوامر تصدر من الرجلين حتى عهد متأخر . ففى ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٦ صدر أمر من محمد على إلى باق بك « بترجمة رسم محاربة نابليون من الفرنساوى للعربى بنفسه »[١] وفى نفس اليوم أصدر أمراً آخر إلى كاتى بك بترجمة التقرير المرفق بالرسم السابق إلى اللغة التركية وأن يترجمه « بنفسه دون أن يأمر أحداً بترجمته »[٢] والرسم والتقرير من وضع المسيو « بون قور »

هذه لمحة سريعة لما كان يتبع فى ترجمة الكتب الحربية . ولبعض جهود كاتى بك فى هذا الميدان . وقد كان كاتى مقرباً إلى ابراهيم باشا محبوباً منه . ولهذا لم يكد يعهد إليه بولاية مصر فى ٢٤ شوال سنة ١٢٦٤ — عندما اشتد المرض بوالده — حتى أصدر أمره فى ٢٦ ذى القعدة من نفس السنة بإعادة تنظيم قلم الترجمة الملحق بالألسن ، وقسمه إلى قسمين . قسم يعنى بالترجمة إلى اللغة التركية وناظره كاتى بك . وقسم يعنى بالترجمة إلى اللغة العربية وناظره رفاعة بك وجعل الرئاسة العليا للقلم لكاتى بك . فى التاريخ السابق نشرت الوقائع المصرية القرار الآتى : « لما كانت ترجمة الكتب المرغوبة التى تشتمل على القوانين والتراتيب والآداب وسائر العلوم والفنون النافعة من اللغة الفرنساوية إلى التركية والعربية ، وطبعها ونشرها وسيلة عظمى لتكثير المعلومات المقتضبة ، وقضية مسلمة عند أولى النهى . وكان حصول ذلك لا يتأتى إلا بوجود المترجمين البارعين فى ألسنة الأفرنجى والتركى والعربى ، واجتماعهم فى محل واحد ، وقسمهم إلى قلمى ترجمة وضمهم إلى نظارة حضرة أمير اللواء كاتى بك وكيل ديوان التفتيش ، الفريد فى فن الترجمة ، المشهور بالسلاسة والبلاغة . حصل فتح القلمين كما ذكر ، وقد تعين حضرة رفاعة بك أمير الاى الذى كان ناظر مدرسة الألسن التابعة إلى ديوان المدارس ناظراً على قلم الترجمة العربى فى معية حضرة الأمير الموى إليه »[٣] .

بدأ عثمان نور الدين الجهود بترجمة الكتب الحربية ، فلما غادر مصر استأنف هذه الجهود كاتى بك . فلما سافر إلى الشام ، قام بالعمل من بعده إسطفان أفندى إلى أن عاد فبدأ يكمل جهوده . وقد شارك فى هذه الجهود أيضاً رجال آخرون من موظفى الدولة أهمهم أحمد أفندى خليل[٤] . وقد يكون من أصل

---

(١) تقويم النيل . ج ٢ ص ٥٠٨ .

(٢) المرجع السابق . ص ٥٠٧ .

(٣) الوقائع المصرية العدد ١٣٧ تاريخ ٢٦ ذى القعدة ١٢٦٤ . وانظر أيضا المرجع السابق ص . ٦٢٠ .

(٤) ظهر من رجال الهندسة الحربية فى عصر محمد على رجلان بهذا الاسم . أما أولهما فمصرى من البانون ترجم له على مبارك فى الخطط ج ٩ ص ٧ فذكر أنه دخل قصر العينى فى ١٢٤٩ (١٨٣٣) ثم نقل إلى مدرسة أبى زعبل ثم إلى المهندسخانة فاستوفى جميع فنونها . ثم وظف مهندسا بديوان المدارس ؛ أما الثانى فتركى الأصل واسمه ليصرلى أحمد خليل أفندى . وقد ترجم له عرطوسون فى كتابه عن البعثات ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ فذكر أنه تعلم فى مدارس مصر ودخل مدرسة السوارى بها ثم اختير منها لبعثة سنة ١٨٤٤ =

تركى . ولا نعرف عنه إلا أنه عين حوالى سنة ١٢٤٠ ناظراً لمدرسة الطوبجية خلفاً لمصطفى بهجت أفندى الذى عين ناظراً لهذه المدرسة بعد « سكويرا بك » وقد ترجم كتباً حربية كثيرة أهمها :

١ — « قانونامه عساكر بياده كان جهادية » . ترجمه تنفيذاً لأمر محمد على[1] وطبع فى بولاق سنة ١٢٣٨ . وطبع ثانية فى غاية شهر شوال سنة ١٢٤٥ لنفاد نسخ الطبعة الأولى .

٢ — « قانونامه عساكر طوبجيان جهاديه بحريه » . وقد ذكر فى مقدمته أنه ترجمة للقانون البحرى الفرنسى قام بها أحمد أفندى خليل « ناظر مدرسة جهادية ورئيس مهندسخانة برية مصرية »[2] وقد طبع هذا الكتاب فى بولاق فى غرة شعبان سنة ١٢٤٢ .

وممن شارك فى حركة ترجمة الكتب الحربية من موظفى الدولة — ولكن بجهود ضئيلة — جركس محمود قبودان (محمود نامى باشا) فقد ترجم كتاباً فى فن الحرب البحرى ، وعبد الحميد بك الديار بكرلى وترجم مؤلفاً فى مقياس السفائن ، ومحمد شنن أفندى (بك فيما بعد) وترجم قانون البحرية .

كانت العلوم الحربية هى الميدان الأول الذى عمل فيه بعض المترجمين من الموظفين فى عهد محمد على . وكان علم التاريخ هو الميدان الثانى . ولعله لم يكن أقل أهمية فى نظر الوالى من الميدان الأول . فقد كان يرى نفسه — وهو منشىء دولة جديدة وصاحب سياسة إصلاحية جديدة — فى حاجة إلى أن يقرأ ويدرس تراجم أمثاله من القواد والملوك والمصلحين ليفيد من خبرتهم . ويتجنب اخطائهم . وأنا لنرى أنه أفاد من هذه القراءة . وهذا هو الفارق الكبير بينه وبين القائد العظيم نابليون . كلاهما من أبناء عصر واحد . ومن غمار الشعب ، وصلا إلى العرش بجهودهما — وخاصة الجهود الحربية — ولكل منهما تاريخ مجيد فى الاصلاح الداخلى . غير أن نابليون لم يقدر قيمة القوة التى وقفت فى سبيله . فلم يعترف بالهزيمة فقضت هذه القوة عليه وعلى ملكه . أما محمد على فقد ناضل حتى أيقن أن لا فائدة من النضال فخضع مكرهاً وقنع بولاية مصر مضطراً . وبهذا احتفظ لنفسه ولأسرته بالملك .

قال محمد على للدكتور « بورنج » فى حديث له : لقد أخبرنى « الكولونيل دوهامل C. Duhamel، أننى أصبح رجلا عظيما إذا قرأت التاريخ . وألممت بالألفاظ اللطيفة التى يمكن أن أعثر عليها فى الكتب .

= (١٢٥٠) فالحق بالمدرسة الحربية المصرية بباريس . وقد رجع الأمير إلى كتاب حقائق الأخبار فوجد به ما يفيد أن من بين أحد افندى خليل قد ترجم كتابين حربيين ، فرجح أن يكون هو ثانى الرجلين أى خليل أفندى الذى أرسل فى البعثة ، غير أننى أرى أن مترجم الكتابين هو خليل أفندى ثالث غير المذكورين . فقد ذكر فى مقدمة كتابه الثانى الذى طبع فى ١٢٤٣ أنه كان ناظرا لمدرسة الطوبجية . فلا يعقل أن يترجم هذه الكتب ويدير مدرسة الطوبجية فى ١٢٤٢ ثم يرسل فى بعثة فى ١٢٥٠ . أنظر أيضاً عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤١٦ .

(١) أنظر مقدمة الطبعة الثانية و ص ١٩٥ منها .

(٢) أنظر مقدمة هذا الكتاب ، وانظر أيضاً سرهنك باشا ، حقائق الأخبار ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

ولكنى الآن لست رجل ألفاظ بل رجل أعمال ، ثم عاد فقال فى نفس الحديث ، لقد نصحنى الكولونل أن أدرس التاريخ لأتعلم فن الحكم ، ولكنى وصلت سنا لا تسمح لى بدراسة التاريخ ، لقد كتب إلى ولدى يطلب تعليماتى عند ما أحاطت به الصعاب ، غير أنى رأيت أن خير تعليمات هى أن أذهب بنفسى ، وقد سافرت إلى يافا وأخضعت الفتنة حالا ، وهذا هو الحكم العملى[١] ،

هذه هى خطة محمد على فى الحكم . العمل لا الكلام . غير أن تاريخه ينبئنا بأنه لم يعمل هذه النصيحة . بل لقد أقبل على كتب التاريخ . والتراجم ونظم الحكم بوازع أول من نفسه . ووازع ثان من هذه النصائح . فأمر أن تترجم له الكتب التاريخية عن اللغات العربية والإيطالية والفرنسية إلى لغته الأصليـــة التركية فترجمت له كتب فى سيرة النبى محمد . وفى تاريخ الإسكندر ونابليون . وكاترين ملكة الروسيا . وترجم له تاريخ إيطاليا ... الخ وفيما يلى بيان تفصيلى بما ترجم له من هذه الكتب ، وقد ترجمها جميعاً موظفون يجيدون الفرنسية والتركية ، وهم مجموعة عجيبة فيهم السورى واليونانى والتركى[٢] . وبعض هذه الكتب قد طبع . والبعض الآخر لايزال مخطوطاً ينتظر من يعنى بنشره .

١ — ترجمة مظهر التقديس بخروج الفرنسيس تأليف المؤرخ المصرى الكبير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، ترجمه عن العربية إلى التركية السيد احمد عاصم افندى وفرغ من ترجمته فى غرة ربيع الأول سنة ١٢٢٥ ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً[٣] فى دار الكتب الملكية بالقاهرة تحت رقم ٨٨٥٤

٢ — الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير . تأليف « مكيافللى » . ترجمه عن الايطالية إلى العربية الأب رفاييل انطون زاخور ولا تزال نسخته المخطوطة — بخط المترجم — محفوظة فى دار الكتب الملكية تحت رقم ٤٣٥ تاريخ . وقد فصلنا الكلام عن هذا الكتاب عند حديثنا عن المترجمين السوريين فى عصر محمد على . وذكرنا فى ذلك الفصل أن محمد على أمر بهذه المناسبة فترجمت له مقدمة ابن خلدون إلى اللغة التركية . ليقارن بينها وبين كتاب الأمير .

---

(١) Bowriug, op. Cit. , P. 145.

(٢) يبدو أن محمد على كان قد أنشأ فى القلعة غرفة للترجمة تترجم له خاصة ما يأمر بترجمته ، وأن معظم هذه الكتب التى نذكرها فيما يلى ترجمت فى هذه الغرفة ، أما أعضاء هذه الغرفة فهم المترجمون المذكورون إلى جانب هذه الكتب ، ويؤيد ترجيحنا هذا رواية رحالة أجنبى معاصر زار هذه الغرفة بالقلعة وذكر أسماء هؤلاء المترجمين ، هـذا الرحالة هو الانجليزى Saint John ، فقد قال فى كتابه Egypt and Mohemed Ali V. I: P. 127 — 129 أنه زار فى القلعة غرفة كانت بها لجنة تقوم بترجمة بعض الأوراق والكتب وذكر من أسماء المترجمين بها : Kalavagi (هو جاكوفاكى أرجيروبولو ، مترجم تركيته تاريخى إلى اللغة التركية) و Artanin Effendi (هو أرتين أفندى) و Yaussouff Effendi و Stephan Effendi (هو اسطفان افندى) .

(٣) أنظر فهرس الكتب التركية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية .

٣ — « التلخيصات المتعلقة بتدبير أمور سلطنة الدولة العثمانية » تأليف الأمير قوجه مصطفى بك الكورجه لى فاتح بغداد . ومن أصحاب السلطان مراد خان الرابع . ألفها وقدمها له حينما وقع الاختلال وظهرت الفتن فى أوائل سلطنته ، ترجمه إلى اللغة العربية عبد الله افندى عزيز بن خليل الكاتب والمترجم بديوان الخديوى بإسكندرية . وكتب له مقدمة فى صورة « عرض حال » ورفعها إلى محمد على باشا ، أتم ترجمته فى سنة ١٢٤١ . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً ومعه الأصل التركى فى دار الكتب الملكية .

٤ — « قترينه تاريخى » ، تأليف المؤرخ الفرنسى « كاسترا » وهو كتاب فى تاريخ الأمبراطورة كاترين الثانية ، وبه مقدمة قصيرة عن تاريخ الروسيا ، ترجمه عن الفرنسية إلى التركية « جا كوفاكى ارجيروبولو » الموظف والمترجم بالديوان الخديوى ، وقد طبع فى بولاق فى جزء واحد سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) ثم أعيد طبعه فى سنة ١٢٤٦ (١٨٣١) تحت عنوان « ايكنجى قترينه نام روسيه امبراتريجه نك تاريخى » بعد أن راجعه وصححه سعد الله آمدى أفندى .

٥ — تاريخ نابوليون بونابرته . وهو مذكراته التى كتبها بنفسه حينما كان منفياً فى جزيرة « سانت هيلانة » ترجم عن الفرنسية إلى التركية وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) ولم أعثر على اسم مترجمه .

٦ — « ترجمه سير الحلبى » وهو ترجمة السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، ترجمها عن العربية إلى التركية سعيد أحمد بك ، وطبعت فى بولاق سنة ١٢٤٨ (١٨٣٨) .

٧ — ترجمة تاريخ دولة إيطاليا[1] ، تأليف المؤرخ الإيطالى « بوتا » ترجمه إلى اللغة التركية عبد الله أفندى عزيز وحسن أفندى ، الكاتبان بالديوان الخديوى وطبعا فى مطبعة سراى الاسكندرية سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٨ — تاريخ نابوليون بونابرته[2] تأليف « الدوق دى روفيجو » ترجمه إلى التركية المترجمان السابقان . وطبع فى مطبعة سراى الإسكندرية سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٩ — « سفارت نامه رفاعة بك » وهى رحلة رفاعة ترجمها عن العربية إلى التركية — بأمر محمد على — المولى رستم أفندى بسيم العرضحالجى بالدائرة السنية الخديوية ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) .

---

(١) يبدو أن هذين الكتابين ترجما تحقيقا لرغبة إبراهيم باشا . والدافع لترجمتهما واضح . فقد ترجما فى ٢٤٨ (١٨٣٢) والحرب السورية الأولى على وشك الانتهاء . كتب حسن أفندى إلى ابراهيم باشا فى ٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٥١ يذكر له أنه أنجز الباقى من ترجمة تاريخ إيطاليا . عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ٢٠ ؛ وفى ٢٢ رمضان ١٢٤٨ كتب إبراهيم باشا إلى سامى بك يوصيه أن يأمر عزيز أفندى القائم على طبع تاريخ نابليون بالجد والنشاط لاخراج الأجزاء الباقية ، عابدين محفظة ٢٤٣ رقم ١٥٣ مكرر . وفى ٨ شوال ١٢٤٨ أرسل زكى أفندى إلى إبراهيم باشا بما يفيد أنه بعث إليه ثلاثة أجزاء أخرى من تاريخ نابليون التى طبع حديثا بمعرفة عزيز أفندى . عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٠١ . وتحت الرقم ٤٠٢ إشارة إلى أن حسن أفندى الناظر يقل هذا الكتاب إلى العربية . انظر أيضاً عابدين محفظة ٢٤٧ رقم ١٩٦ بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٢٤٩ .

(٢) أنظر الهامش السابق .

١٠ — شرح قصيدة البردة ، ترجمه عن العربية إلى التركية أحمد أفندى مصطفى، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٦ (١٨٤١) .

هذه هى الكتب التاريخية التى ترجمت فى عصر محمد على وبأمره إلى اللغة التركية تبين فى وضوح اتجاهه نحو تثقيف نفسه ثقافة تاريخية واسعة ، ونستطيع أن نضيف إليها ماترجمه خريجو الألسن إلى اللغة العربية من كتب فى تاريخ أوربا فى عصورها المختلفة ، وتاريخ فرنسا وبطرس الأكبر ، فما لا شك فيه أن كثيراً من هذه الكتب كانت تقرأ لمحمد على أو تعرض عليه فيقرها قبل طبعها .

ونلاحظ أخيراً أن هذه الكتب جميعها ترجمت تحقيقاً لرغبات محمد على أو لرغبات ابنه ابراهيم ، ولولا هذه الرغبات ما ترجمت هذه الكتب ، غير أنا عثرنا بين الكتب التى ترجمها موظفو الدواوين فى ذلك العصر على مثال فريد فى كل ما يحيط به فهو فريد فى نوع الترجمة لأنه مترجم عن الفارسية إلى العربية ، وهو فريد فى الدافع على ترجمته ، فقد ترجمه مترجمه بدافع من هوايتـــه الشخصية وشغفه بالدراسة ، وهو فريد أخيراً فى نوعه ، فهو كتاب فى الأدب ، بل لعله الكتاب الوحيد فى علم الأدب الذى ترجم فى عصر محمد على .

هذا الكتاب هو ترجمة عربية لكلستان سعدى قام بها جبرائيل بن يوسف المخلع السورى الأصل والكاتب بالديوان الخديوى بثغر الإسكندرية ، وطبعت هذه الترجمة فى بولاق فى صفر سنة ١٢٦٣ .

وقد ذكر « الخواجة جبريل » فى مقدمة الكتاب أنه كان شغفاً بالبحث والقراءة ، لكن الأشغال الديوانية ، كانت تحول بينه وبين تحقيق رغبته ، ثم رأى أخيراً أن يخصص ساعات من وقت فراغه لدراسة اللغة التركية ، وذلك ، لعموم نفعها من وجهين ، وكثرة توقعها على الأذنين ، فإنها بعد اللغة العربية أوفر تداولا فى المصالح العربية »[1] وبدأ هذه الدراسة فى الليلة السادسة عشره من جمادى الثانى سنة ١٢٥٧ . ثم لاحظ أن هذه اللغة التركية تعتمد اعتماداً كبيراً على اللغتين العربية والفارسية ، وأن ماعليها ، من الحلى والحلل لم يكن من ذاتها حصل ، وإنما هو مكتسب من مواهب اللغتين العربية والفارسية ، ولذلك يقول « أدركت أننى لا أرتوى من حياضها ، ولا أجتنى من رياضها . . . ألا بحوز مستعملات اللغة الفارسية . وأما العربى فهو لسانى بالسجية ، ولهذا شرع فى تعلم اللغة الفارسية « فى ثانى ساعة من ثانى ليلة من المحرم الحرام سنة ثمان وخمسين وألف من هجرة الإسلام »[2] . وكان من بين الكتب التى قرأها أثناء دراسته اللغة الفارسية كتـاب « كلستان »[3] وقد أعجب به فرأى أن يترجمه ليحقق بذلك رغبتين : أولاهما أن

---

(١) كلستان سعدى . الترجمة العربية . ص ٦ و ٧ .

(٢) المرجع السابق . ص ٨ و ٩ .

(٣) طبع النص الفارسى لهذا الكتاب فى بولاق سنة ١٢٤٤ (١٨٣٨) ، ثم أعيد طبعه مرة أخرى فى سنة ١٢٥٣ (١٨٤٠)

يستعين بالترجمة على إتقان هذه اللغة ، وثانيهما إفادة قراءة اللغة العربية ، يقول فى هذا المعنى : وبينما أنا فى بعض الليالى مكب على مطالعته ، مستغرق فى مسامرته ، إذ أشارت إلى العناية الربانية ، وألهمتنى الإرادة الصمدانية ، أن أستخرج درة من بحر الفاسية إلى شاطىء العربية ، ليتم لى بذلك فائدتان : إحداهما التقوى فى هذا اللسان ، والثانية نفع من رغب فهمه ممن وقف عند العربية فى البيان » .

وقد ذكر أنه أتم ترجمته فى شهر وأيام ، فقد بدأ الترجمة فى يوم الاثنين السادس من شهر رمضان سنة ١٢٥٨ وأتمها فى السادس عشر من شوال من نفس السنة .

الميدان الثالث الذى ظهرت فيه جهود المترجمين من الموظفين هو ميدان العلوم الرياضية . فقد كانت هذه العلوم تدرس فى المدارس الحربية كما كانت تدرس فى مدارس الهندسة . ومعظم تلاميذ المدارس الحربية — فى العهد الأول — إن لم يكن كلهم كانوا من سلالات تركية . وكانوا يدرسون فى تلك المدارس باللغة التركية . لهذا كان من الواجب أن تترجم لهم هذه الكتب إلى اللغة التى يفهمونها وبعض هذه الكتب ترجم عن الفرنسية إلى التركية مباشرة . والبعض الآخر كان قد ترجم إلى العربية لاستعماله فى مدارس المهندسخانة فصدرت الأوامر بترجمته عن العربية إلى التركية .

والاسم البارز فى هذا الميدان هو إبراهيم أدهم بك مدير ديوان المدارس فقد كان المشرف على حركة الترجمة الرياضية إلى اللغة التركية ، ولا عجب فهو من أصل تركى ، وقد درس علوم المدفعية فى انجلترا ، وكان رئيساً لبعض البعثات الصناعية التى أرسلت إلى انجلترا ، وقد بدا له وهو فى بلاد الانجليز أن يتشبه بهم فى كل شىء فخلع ملابسه الشرقية ولبس ملابسهم ، وحاكاهم فى عاداتهم ، فغضب عليه محمد على غضباً شديداً وأعاده إلى مصر ، وظل عاطلا حتى شفع له عباس باشا[1] فعفى عنه بعد أن اعترف بخطأه واعتذر عنه . وعينه محمد على مديراً لديوان المدارس خلفاً لمختار بك الذى توفى فى سنة ١٨٣٩ .

وقد كان أدهم رجلا قديراً نشيطاً وافر الذكاء واسع الثقافة ، وخاصة فى العلوم الحربية والرياضية ، يجيد اللغتين الفرنسية والإنجليزية معرفة وحديثاً . وقد ذكر كاوت بك أنه تعلم اللغة الفرنسية « بقوة إرادته وعلى غير أستاذ ، وهو صحيح اللهجة فيها ، وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتها ، وأحاط بشتات المعلومات الخاصة بفن الطوبجية ، وأرى أنه يناظر فيها أحسن ضباط المدفعية ، وأمهر مديرى الإدارات المتعلقة بها ، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشئون الإدارية ، ولا شك فى أن محمد على كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله[2] » .

وقد ترجم أدهم بك بعض هذه الكتب بنفسه ، ومنها :

١ — رسالة فى علم جر الأثقال ، ترجمها عن الفرنسية الى التركية ، وطبعت فى بولاق سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

---

(١) تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

(٢) كاوت بك لمحة ، عامة إلى مصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ (نقلا عن « للارشال دى راجوز ») .

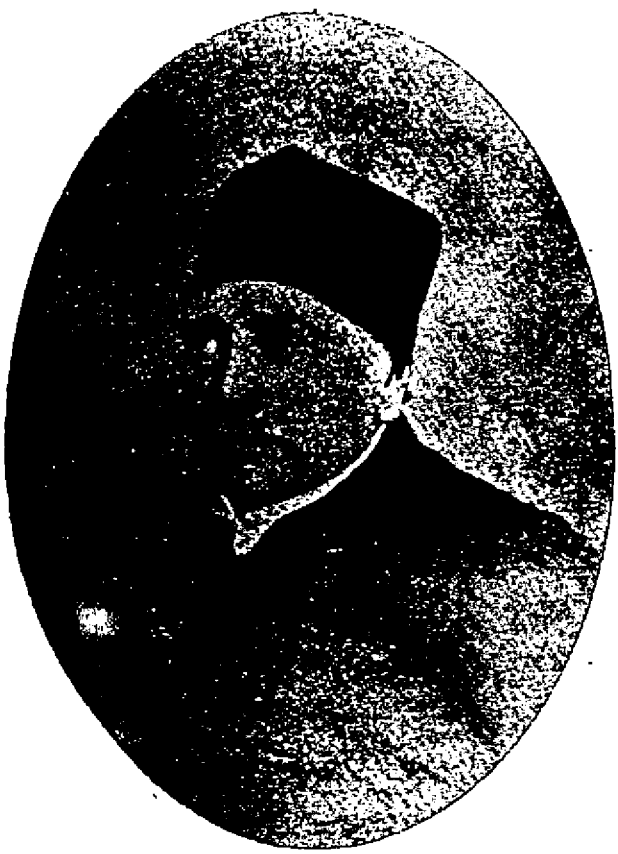

أدهم بك

مدير ديوان المدارس

٢ — رسالة فى الهندسة ، ترجمها عن الفرنسية إلى التركية ، وطبعت فى بولاق سنة ١٢٥٣ (١٨٣٧) .

٣ — مقالات الهندسة ، ترجمها عن الفرنسية إلى التركية ، وطبعت فى بولاق سنة ١٢٥٢ (١٨٣٧) ؛

وقد ترجم بعض الكتب الرياضية الأخرى موظفون آخرون بإشارة أدهم بك وإشرافه . أظهر هؤلاء عصمت أفندى ، وعلى افندى الجيزلى ، وقد ترجموا الكتب الآتية : —

١ — أصول الهندسة تأليف « لوجاندر » ترجمه عن الفرنسية إلى التركية أدهم بك ، ثم ترجمه عن التركية إلى العربية محمد عصمت افندى وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) .

٢ — مبادىء الهندسة ، ترجمه عن الفرنسية إلى العربية رفاعه ، رافع الطهطاوى ، ثم ترجمه عن العربية إلى التركية محمد عصمت افندى . وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٩ .

٣ — إفاضة الأذهان فى رياضة الصبيان . ترجمه عن الفرنسية إلى العربية محمد الشيمى أحد خريجى الألسن . وكانت ترجمته « برسم حضرات أنجال الخديو الأعظم ، وحفدة الداورى الأكرم . وليشتغل به تلاميذ المكتب العالى الشهير ، وتلاميذ المكتب السامى بالقصر المنير ، وليكون أيضاً مستعملا فى مكاتب المبتديان بالمحروسة والأقاليم . . [1] » ، وقد ترجمه عن العربية إلى التركية على افندى الجيزلى « الخوجة بالمدارس المصرية » بإشارة ابراهيم بك أدهم مدير المدارس المصرية ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٩ .

وهنالك كتابان أخيران مما ترجم الموظفون إلى اللغة التركية فى عصر محمد على وهما كتابان فى الطب من تأليف كلوت بك ، أمر بوضعهما محمد على لنشر الثقافة الطبية ووسائل الوقاية والعلاج البسيطة بين أفراد الشعب . وقد تحدثنا طويلا عنهما فى الفصل الخاص بالمؤلفين والكتب . وهما « كنوز الصحة ويواقيت المنحة » و « الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال » ، وقد ترجمهما عن الفرنسية إلى العربية الدكتور محمد الشافعى ، وقام على تصحيحهما وصياغتهما فى أسلوب بسيط قريب من فهم العامة الشيخ محمد عمر التونسى ، وإذ كانت طائفة كبيرة من سكان مصر فى ذلك الوقت تجيد التركية دون العربية فقد أمر محمد على بترجمة هذين الكتابين إلى اللغة التركية ، وترجمهما مصطفى رشى الجركسى افندى ، وذلك بإشارة أدهم بك أيضاً ، وطبع الأول فى سنة ١٢٦١ ، والثانى فى سنة ١٢٦٠ .

---

(١) أنظر مقدمة الترجمة العربية .